عبد الوهاب مطاوع

الزهرة المفقودة

فريق
متميزون
E-BOOK

دار المعرفة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: الزهرة المفقودة.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى.. نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة

الزهرة المفقودة

عبدالوهاب مطاوع

مقدمة..

هل تحتاج هذه المجموعة الجديدة من القصص الإنسانية الواقعية إلى مقدمة أهيئ بها القارئ لقراءتها وتلمس دروسها وعبرتها؟

إنها مجموعة أخرى مختارة من قصص بريد الجمعة التي أحرص على جمعها وإصدارها في كتب مستقلة، استجابة لرغبة القراء الذين يطالبونني دائما بذلك، ولقد قلت في مقدمات كتبي العديدة السابقة التي ضمت هذه المجموعات من القصص كل ما يمكن أن يقال عن أهمية التجربة الإنسانية والاستفادة منها في تجنب عثرات الطريق، وعن خبرة الألم وكيف تكسب الإنسان أعماقا جديدة وتورثه الحكمة، وعن احتياج الإنسان الأبدي إلى من يهتم بأمره ويحترم أحزانه.. ويسمع له ويعطيه من نفسه ما يشعره بأنه ليس وحده في مواجهة همومه الإنسانية..

ولقد أستطيع أن أزعم لك أنك تجد في هذا الكتاب الجديد نفس هذا الاهتمام بآلام الإنسان وأحزانه وآماله وإحباطاته، ونفس الرغبة الصادقة في إعانته على أمره.. وإخلاص المشورة له.. والأخذ بيده إلى طريق الأمان.. والله من وراء القصد.

عبد الوهاب مطاوع

∞∞∞∞∞∞

السفينة التائهة!

لا أكتب لك عن مشكلة أواجهها، وإنما عن تجربة مررت بها وأرغب في أن يستفيد بخبرتها غيري، خاصة الفتيات اللاتي في سن الزواج.

فأنا سيدة شابة عمري ٢٨ عاما وأعمل بهيئة أجنبية وتخرجت في كلية عملية مرموقة وأشغل منصبا ممتازا وقارئة جيدة للفكر الإسلامي والغربي على السواء، كما أنني كنت بطلة في إحدى الألعاب الأوليمبية.

وقد بدأت تجربتي حين تقدم لي، وأنا طالبة بالسنة النهائية في الجامعة شاب يكبرني بسنوات بدت لي كثيرة بالرغم من أنه في قمة النضج والشباب، ولأنني قد نشأت يتيمة الأم منذ طفولتي، وأبي لم يكن يجيد وزن مثل هذه الأمور، وإخوتي الشبان كل منهم مشغول بأحدث أغنية وأقوى فيلم وأحدث موضة... وأروع سيارة، فلقد افتقدت المشورة المفيدة في هذا الموقف.. خاصة أنني قد فقدت مبكرا شقيقتي التي راحت ضحية لحادث مؤلم، وكانت لي نِعم الأخت والصديقة، يرحمها الله.

وهكذا فقد عجزت عن اتخاذ القرار السليم وترددت في قبول خطبة هذا الشاب بالرغم من أنه لا ينقصه شيء، ولم يكن يعيبه من وجهة نظري في ذلك الوقت سوى جهله بأحدث موضة «وأروش» أغنية وأسرع سيارة... إلخ.

وقد أثار خوفي وخوف الأهل والأصدقاء فارق السن بيننا.. كما أنني قد فسرت حبه الجارف لي بأنه محاولة منه لإخفاء عيوب جوهرية فيه أو تعويض عنها! وهكذا فقد رفضته.. وطلب هو مني أن أعيد التفكير في الأمر فوعدته بذلك.. فمضت فترة وهو يتعلق بالأمل في قبولي له وزواجي منه، ومن حين لآخر يتقدم لي فأرفضه تارة وأعلق القرار تارة أخرى.. أو تقابله أسرتي بجفاء في مرة ثالثة، وهو لا يسلِّم باليأس مني أبدا. واستمر الحال على هذا النحو بضع سنوات، تزوجت خلالها كل صديقاتي ووجدت نفسي الفتاة الوحيدة بينهن، وبدأت أشعر بالقلق والتوجس من المستقبل خاصة أن أبي كان قد مرض خلال ذلك مرضا شديدا، ثم رحل عن الحياة هو الآخر يرحمه الله.

ولم يقف بجواري في محنة مرضه سوى هذا الشاب بالرغم من مراوغتي له. وبعد وفاة أبي تقدم لي خطيب آخر فقبلته دون أن أفكر في تغيير موقفي من الشاب الذي يتمناني لنفسه منذ سنوات.. ولم تدم خطبتي لمن قبلت به سوى بضعة أشهر، ثم تحطمت على صخرة غيرته الشديدة عليّ.. وتوقع الشاب الأول بعد فسخ الخطبة أن أكون على استعداد لقبوله هذه المرة.. لكني خيبت ظنه مرة أخرى للأسف، وعقدت قراني على قريب لي فلم يطل ارتباطي به هو أيضا كثيرا، وتم الانفصال بيننا قبل الزفاف بأيام.

وبعد فترة أخرى تزوجت من زميل لي في المجال الرياضي.. له نفس طموحي وآمالي وتجمع بيننا الاهتمامات المتقاربة، كما كنت أطمع دائما فيمن ارتبط به،

فإذا بكل هذه الروابط المشتركة لا تنجح في إنقاذ سفينة الحياة الزوجية من الغرق.. ويتم الانفصال الثالث في حياتي بعد قليل.

وعقب الانفصال اضطربت أفكاري، وفقدت تركيزي في لعبتي وخسرت مكاني في المنتخب وساءت حالتي المعنوية، وفكرت لأول مرة في الزواج لمجرد الاستظلال بظل رجل.. وليس كما كنت أرجو لنفسي دائما من أجل الحب والسعادة والميول المشتركة والحياة اللامعة..

وفي غمرة ضيقي بوحدتى بعد وفاة أبي.. وانشغال إخوتي بحياتهم الخاصة.. وسوء حالتي المعنوية بعد الفشل المتكرر في الارتباط والسعادة، ساءلت نفسي من هو الرجل الذي يمكن أن يقف إلى جواري في مثل هذه الظروف ويأخذ بيدي ويعيد إلى ثقتي في نفسي؟

وعلى الفور قفزت إلى ذهنى صورة الشاب الأمين الذي تقدم لي في عامي الجامعي الأخير ورفضته أكثر من مرة، فلم يضق بي ولم، ينقلب عليّ ولم يكرهني ولم يفقد رغبته فيّ وتمسكه بي.

وتساءلت ماذا يعيب مثل هذا الرجل وهو إنسان هادئ ومتزن ووسيم وشخصيته جذابة ورقيق المشاعر وبار بأهله!.

وتذكرت ما قرأته لك أكثر من مرة في هذا الباب من أننا لا قيمة لنا إلا عند من يحبوننا ويحرصون علينا ويتوسلون بالحيل للحفاظ علينا. فأعلنت استعداي لقبول الزواج منه، إذا كان مازال راغبا في الزواج مني، ولم يتردد الرجل الكريم في التقدم إليّ مرة أخرى، وتمت الخطبة وأنا لا أشعر تجاهه بالحب.. لكني أأمل في أن تخلق الحياة المشتركة بيننا حبه في قلبي ذات يوم.

وانتهت استعدادات الزواج على وجه السرعة.. وتزوجنا، وأنا أرجو الله في أعماقي ألا يطول انتظاري لميلاد الحب أعواما كثيرة.. فإذا برحمة ربي تدركني في الأسابيع الأولى من زواجنا.. وإذا بي أجد في زوجي كل ما كنت أتمناه في شريك الحياة من التدين وتقوى الله وحسن المعاملة والحنان والتشجيع المستمر، فيتدفق ينبوع الحب في قلبي تجاهه.. وأجدني أكاد أحسد نفسي على السعادة التي وجدتها معه.. وأتحسر في الوقت نفسه على السنوات التي أضعتها من عمري قبل الارتباط. ولقد مضت الآن على زواجنا السعيد ثلاث سنوات عامرة بالحب والهناء، رزقنا الله سبحانه وتعالى خلالها بطفلين جميلين.. وأتم علينا نعمته بالنجاح الباهر في العمل..

وبأداء العمرة مع زوجي الذي أستطيع أن أقول عنه الآن إنه الزوج والحبيب والعشيق والأخ والأب والصديق.

وإني لأسجد لله شكرا على أن هداني إلى اليقين، بعد حالة الشك التي تساور كل فتاة مقبلة على الزواج.. وإلى السعادة مع زوجي الحبيب، بعد حالة الوحدة التي عانيتها عقب وفاة أبي وفشلي المتكرر في الحالات السابقة..

وأشعر الآن شعورا عميقا بالذنب تجاه هذا الإنسان العظيم، الذي أرادني منذ البداية بإصرار فأنصرفت عنه لجهلي وغفلتي، وأريد أن أذكر كل فتاة بالحديث الشريف الذي يقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» ذلك إن كثيرات لا يفكرن حين يتقدم لإحداهن شاب إلا في مدى التوافق أو التكافؤ المادي والمعنوي والنفسي والطموح المشترك والمظهر العصري والملبس.. و «الروشنة» والإتيكيت، وغير ذلك من العوامل.. ولا يفكرون إلا قليلا في مدى التزام هذا الشاب بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وفي خلقه وقيمه الأخلاقية فتكون النتيجة هي ما نراه كثيرا من حالات الانفصال.

وأما نصيحتي الأخرى فلسوف أستعيرها من العبارة التي استشهدت بها في ردك أخيرا على إحدى الرسائل للإمام علي بن أبي طالب، وتقول ما معناه «إن من شقاء المرء زهده في راغب فيه».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ذكرتني رسالتك بالأسطورة القديمة التي كتبها الإيطالي جيوفاني استرابلو عن فتاة حالمة رائعة الجمال، تنافس شباب المدينة على طلب يدها وكلهم من فرسان الوسامة و «العصرية» بمقاييس زمنهم، ثم خرج أبوها في رحلة إلى الغابة وضل طريقه فيها وحل عليه الظلام وخشي على نفسه من الوحوش الضارية، فلجأ إلى قصر مهجور وجده في الغابة.. فما أن تسلل إليه حتى فوجئ برجل كثيف الشعر بعيد عن الوسامة، يعيش فيه احتجزه في القصر وسجنه في إحدى قاعاته.

وبحثت الفتاة عن أبيها طويلا حتى عرفت مقره.. ورفض الشبان الذين كانوا يتنافسون على طلب ودها مساعدتها في الإفراج عن أبيها خوفا من القصر المجهور وساكنه.. فتوجهت هي إليه والتقت بصاحبه ورجته الإفراج عن ابيها ووافق الرجل على ذلك، ولكن بشرط أن تبقى هي في القصر بدلا منه، وقبلت الفتاة أن تقدم هذه التضحية من أجل أبيها.. وأفرج عنه وأقامت الفتاة الجميلة الرقيقة في القصر وتعاملت مع هذا الرجل، فإذا بها تكتشف وراء مظهره غير العصري وشعره الكثيف قلبا رقيقا حنونا ونفسا طيبة وروحا تتطلع إلى السعادة في صبر، فتقبل بنفس راضية الزواج منه وتعيش معه حياتها في سعادة وأمان وسط دهشة المتنافسين عليها وحسرتهم.. وتتعلم درس التجربة وهو أنه ليس من الحكمة أن تحكم على البشر بمظهرهم الخارجي أو بمدى مسايرتهم لروح العصر..

ومع أن القياس مع الفارق فإن درس الأسطورة يظل صالحا للتعميم على قصتك كذلك.. وهو أننا لا نعرف حقيقة الأشخاص بمظهرهم الخارجي وإنما بالاقتراب منهم ،والتعامل المكثف معهم.

والمشكلة الحقيقية التي أدت إلى تخبطك عدة مرات في الاختيار قبل أن ترسو سفينتك في المرفأ الآمن، الذي ينتظرها منذ البداية، هي أن معايير الاختيار لديك كانت خاطئة ومضللة.. كمعيار الحكم على الأشخاص بمظهرهم الخارجي في الأسطورة القديمة، فقد كانت كلها معايير سطحية تتعلق «بعصرية» الخطيب ومدى مسايرته للموضة وبقية الاهتمامات الشبابية، ولم يكن من بينها كما أدركت أنت ذلك في النهاية شخصيته وقيمه الدينية والأخلاقية وطباعه وحسن معاشرته للآخرين ونوع رؤيته للحياة ومبادئه ومثالياته، وهي المعايير الجوهرية التي ينبغي الاختيار على أساسها.. فضلا عن المعيارالآخر الذي لا يقل أهمية في حالتك وهو عمق حبه لك منذ البداية.. وصدق رغبته فيك على الرغم من زهدك السابق فيه.. ورفضك المتكرر له.. وإيثارك غيره عليه ثلاث مرات متتالية! فكيف عزفت عن مثل هذا الحب العظيم وحرمت نفسك منه كل هذه السنوات؟.

ليس من شك في أن غياب دور الأم في حياتك وعجز الأب الراحل عن القيام بدورها في إرشادك إلى ما فيه صلاح أمرك وافتقادك الأخت الصديقة والمشيرة.. قد أثر على حسن اختيارك لحياتك. وعلى افتقادك المرشد والدليل الذي يهديك سواء السبيل ويجنبك العثرات.

ونحن كثيرا ما نتخبط في سعينا للسعادة وتضل خطواتنا إليها قبل أن تترفق الأقدار بنا، وتضعنا على الطريق الذي لم نكن نصلح من البداية إلا له.

فكأنما قد شردنا بعيدا في صحراء التيه لنعرف بالتجربة المرة وسنوات العمر الضائعة.. الطريق الذي كان ينبغي لنا أن نسلكه من الأصل.

كما أننا قد نقبل في بعض الأحيان بما لم نكن نقبل به من قبل، بدافع الإحباط، أو اليأس من أن نحقق لأنفسنا ما كنا نرجوه لها، فإذا بتجربة الأيام تثبت لنا أن ما قبلنا به متشككين أو يائسين من بلوغ غيره هو الاختيار الأفضل والأمثل لنا.

بل إننا في بعض الأحيان قد نطلب الأمور بدوافع اضطرارية قد تخجل من الاعتراف بها لغيرنا.. فيأبى الله سبحانه وتعالى - وهو المطلع على نياتنا الحقيقية - إلا أن يكون أكثر كرما ورفقا بنا..

ويسعدنا بما اضطررنا إليه.. ويرفع عنا ما كنا نستشعره من حرج داخلي بقبولنا له.. ولقد روى الإمام أبو حامد الغزالي أنه لما نفد ما خلفه له أبوه لتعليمه مع أخيه، نصحه صديق الأب الراحل الذي يرعاهما بأن يلتحقا بإحدى المدارس الدينية التي تقدم لطلاب العلم الغذاء والكساء فالتحقا بها وطلب العلم بها سعيا وراء الغذاء والكساء، فإذا بالغزالي يتفقه في الدين، ويصبح حجة فيه وإماما من أئمته الأجلاء، ويقول الإمام الغزالي ملخصا هذه القصة كلها: »أردنا العلم لغير الله.. فأبى إلا أن يكون الله».

وهكذا قد نفعل نحن أيضا في بعض الأحيان فيكون اختيار الله لنا أفضل من كل ما سعينا له.. وأشرف من كل ما أضمرناه نحن من دوافع وأسباب لهذا السعي، والمهم دائما هو أن يتعامل المرء مع حياته بأمانة وشرف وإخلاص.

وشكرا لك على رسالتك، وأرجو أن يستفيد بها غيرك كما تأملين وأن يشاركوك دروسها، وأهمها في تقديرك هي أن لكل سفينة شراعا إذا فقدته تلاعبت بها الأمواج وعجزت عن الوصول إلى غايتها، وأن شراع كل إنسان الذي يحميه من الحيرة والتخبط والضياع هو الالتزام بتعاليم دينه وروحه وقيمه ومبادئه.. كما اهتديت أنت في النهاية إلى ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأسباب الجارحة

أكتب إليك رسالتي هذه لكي ترشدني إلى الحل السليم. فأنا شاب في الثلاثينيات من العمر، بدأت قصتي بعد أن تخرجت في كلية نظرية، وعينت مدرسا بإحدى مدارس محافظة الجيزة، وبدأت اتطلع للمستقبل.

وفي تلك الفترة وقع نظري بالصدفة على فتاة جميلة لها قوام ممشوق فخفق قلبي لرؤيتها.. وسألت عنها واغتبطت حين وجدت أخي الأكبر يعرف عائلتها، فأفضيت إليه برغبتي في التقدم إليها... ولم يتردد أخي في الاستجابة.. وعلى الفور حدد موعدا مع والدها واصطحبني معه لمقابلته في لقاء التعارف المبدئي، واستقبلنا والد الفتاة بترحاب وتبادلنا الأحاديث التقليدية.. وبعد قليل دخلت علينا الفتاة، فاضطربت دقات قلبي واشتدت حتى خشيت أن يسمعها الآخرون.

وبعد فترة من الجلسة المشتركة انسحب الأب وأخي إلى الصالة ليدعا لنا فرصة للحديث و تبادل الأفكار وتركانا لفترة ثم رجعا إلينا.

فما أن دخلا حتى نهضت الفتاة بعصبية واستياء وغادرت الغرفة وهي تقول لوالدها أمامنا: ما هذا يا أبي الذي أحضرته لي؟ ونزلت العبارة الجارحة علينا كالصاعقة؟ وارتبك الأب وحاول التسرية عنا لكني غرقت في خجلي وعرقي، وزاد من ألمي وجرحي أن سمعت من الصالة صوت ضحكات إخوة الفتاة الساخرة.. وخمنت أنها تروي لهم ما حدث.. وتقول لهم إن أباها أحضر لها شابا لا يملك شيئا وفوق ذلك أسمر «غطيس»، فيضحكون وتضحك معهم وتمنيت لو كانت الأرض قد انشقت وبلعتني. وتمالكت نفسي بصعوبة..

وغادرنا البيت ونحن نتعثر في خطواتنا.

وبالرغم من كل ذلك فلقد أصررت على أن أعرف أسباب الرفض.. وكلفت أخي بسؤال والد الفتاة، فإذا به يؤكد لي ما تخيلته.. وهي أنها قد رفضتني لأني أسمر البشرة وإمكاناتي ضعيفة.. وحاول أخي أن يهون عليّ الأمر فقال لي إن الفتيات كثيرات، وإنني سوف أجد من تتمناني زوجا لها... إلخ.. فهززت رأسي مؤيدا وتماسكت أمامه، ثم دخلت غرفتي وأغلقت بابها على وانفجرت باكيا رغما عني.. فلقد شعرت بجرح الكرامة والإهانة.. والإساءة إلى من فتاة لم أرد بها إلا الخير..

وتجاهلت الموضوع بعد ذلك مع أخي أو تظاهرت بذلك وتجنبت رؤية هذه الفتاة بكل طريقة ممكنة لكيلا يتجدد الجرح.

وبعد بضعة شهور واتتني الفرصة للسفر للعمل بإحدى الدول العربية، فسافرت إليها وواجهت تجربة الغربة ومشاكلها وانشغلت بحياتي الجديدة. واستغرقت تجربة الغربة خمس سنوات، علمت خلالها من أخي أن الفتاة قد خطبت مرتين وفسخت خطبتها لأسباب لا أعلمها..

وانتهى عملي بالخارج ورجعت إلى أسرتي وعملي.. وقد استقرت أحوالي المادية وحجزت شقة تمليك، وبدأت أفكر في البحث، عن نصفي الآخر قبل أن يسرقني

الزمن.. فإذا بأخي يحثني على التقدم مرة أخرى للفتاة التي رفضتني من قبل لأنها خالية وسوف ترحب بي.. وترددت في قبول الفكرة بعض الشيء.. ثم سألت نفسي ولماذا لا أفعل وقد تحسنت أحوالي المادية وزالت عقبة مهمة من طريقي إليها، وقمنا بزيارة أسرة الفتاة مرة ثانية.. ودخلت علينا الفتاة حجرة الاستقبال فلم ينتفض قلبي هذه المرة وتشتد ضرباته لرؤيتها.. وإنما لاحظت أن ملامح الفتاة قد تغيرت وزال عنها بعض كبريائها السابقة.. فشعرت في داخلي بالانتصار.. وفكرت لماذا لا أتزوجها وانتقم منها لإذلالها السابق لي؟.

وبالفعل مضيت في هذا الطريق.. وتمت الخطبة، وأنا لا أعرف هل أنا سعيد بالفتاة نفسها أم سعيد بكسر نفسها وبرغبتها فيّ بعد رفضها السابق لي للأسباب الجارحة التي رويت لك عنها. ومضينا نستعد للزواج وأنا لا أفكر إلا في إملاء شروطي على خطيبتي وأرتب في ذهني لأن أفرض عليها إرادتي بعد الزواج، فلا تزور أهلها إلا حين أشاء.. ولا تغادر البيت إلا بإذني وبعد الرجاء و... هكذا.

ثم تزوجنا وتعاملت معها بطريقة عادية، ولكن خالية من أي تدليل من جانبي.. وتعمدت خلال الأسابيع الأولى من الزواج أن أخرج مع أخي وزوجته بدونها وأتركها وحدها في البيت..

والعجيب أنني وجدتها لا تعترض على ذلك ولا تعاتبني على شيء فقررت أن أمضي معها على هذا المنوال.. إلى أن جاء يوم وفوجئت بها تشكو من بعض الأعراض، وتطلب مني عرضها على الطبيب.

واصطحبتها في المساء إلى أحد الأطباء فما أن فحصها حتى ابتسم وهنأني على حمل زوجتي، وطلب منها الاستسلام للراحة وتناول بعض الأدوية.. وغادرنا العيادة وأنا مضطرب الفكر وموزع بين الابتهاج بالخبر وبين الانزعاج له! فلقد كنت أريد أن أشفي غليلي منها، قبل أن تصبح أما لابن أو ابنة لي، ويتعين عليّ المحافظة عليها لكي ترعى مولودنا..، والمشكلة هي أن نفسي لم تشف بعد من الإهانة التي لحقتني منها بمعايرتها لي ببشرتي السمراء وضعف إمكاناتي، فهل أنسى لها كل شيء وأنسى سنوات الغربة والمرارة وأكف عن معاملتي السيئة لها.. أم هل أسرحها بإحسان وأتركها لحالها لكي تخمد النار المتقدة داخلي؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ليس من الأمانة أن يرتبط إنسان بفتاة لكي يتشفى فيها أو ينتقم منها أو يمارس عليها إحساسا زائفا بالانتصار!.

والزواج بنية الانتقام ليس زواجا صحيحا.. لأن الزواج الصحيح هو ما يقدم عليه الطرفان بنية «التأبيد» أي الاستمرار إلى نهاية العمر.. والرغبة المخلصة في السعادة وإسعاد الطرف الآخر.

فلماذا أقدمت أيها الشاب على الارتباط بزوجتك ولما تخل نفسك بعد من الموجدة عليها؟ ولماذا لم تتطهر من هذه المشاعر الكريهة تجاهها قبل الارتباط بها، أو تنصرف عنها إلى غيرها من الفتيات اللاتي لا تنطوي لإحداهن على مثل هذه المرارة.. والضغينة؟.

إن مشكلتك الحقيقية ليست في رفض زوجتك لك قبل 5 سنوات ولا فيما توهمته أنت من ضحكات السخرية منك يوم تقدمت لطلب يدها، ولا هي حتى في الأسباب «الجارحة» التي نقلت إليك عنها كمبرر لرفضها لك، وإنما هي في تقديري في حساسيتك المغالي فيها تجاه لون بشرتك الذي لا يعيبك ولا يعيب أحدا ولا يتوقف أمامه عاقل يثق في نفسه وفي جدارته بكل خير في الحياة..

ولهذا فأنت لم تغفر لزوجتك إشارتها إلى لون بشرتك في أسباب رفضها لك في المرة الأولى. مع أنها لم تكن في تقديري هي السبب الرئيسي للرفض في ذلك الحين.. وإنما كان السبب الجوهري هو ضعف إمكاناتك المادية، وتشكك فتاتك في قدرتك على الوفاء بمتطلبات الزواج في المدى القريب، بدليل أنك حين أصبحت قادرا على تكاليفه، لم يقف لون بشرتك عائقا دون قبولها لك.. وأنت هو أنت لم تتغير ولم تتبدل، وإنما تغيرت بعض ظروفك المادية إلى الأفضل.. فماذا يعني ذلك سوى أن الأسباب المادية التي لا تعيب هي أيضا أحدا كانت هي الحائل بينك وبين فتاتك في الماضي وليس أي شيء آخر؟.

ثم إن أفكار البشر تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر.. ولقد كانت فترة السنوات الخمس الفاصلة بين الخطبتين كافية لأن تكتسب فتاتك فهما أعمق للحياة ونضجا أكبر وخبرة أفضل بما يستحق التوقف عنده وما لا يستحق، فضلا عما اكتسبته من خبرة التجربة الفاشلة في الخطبة مرتين وما أضافه إليها ذلك من استعداد أفضل للتفكير الواقعي والعملي.. لقد أصبحت أكثر نضجا وأكثر إدراكا لحقائق الحياة.. ولا عجب في ذلك حتى ولو كنت قد فسرت أنت ذلك بأنها قد انكسرت شوكتها وتخلصت من كبريائها السابقة.. لأنه تغير إيجابي في صالحها وليس ضدها.. وشتان ما بين ما تعتبره أنت انكسارا لها الآن.. وبين تهورها وخفة تصرفها حين عبرت عن رفضها لك في المرة الأولى بتلك الطريقة القاسية، التي آذت مشاعرك ومشاعر شقيقك وأحرجت أباها أمامكما..

فلماذا لا تشجع هذه التطورات الإيجابية في شخصيتها وتتجاوز عن خطئها الذي سقط بمضي المدة.. وكان المأمول ألا تتقدم إليها مرة أخرى إلا إذا كنت قد تجاوزت عنه وغفرته لها؟ إذا كنت في حاجة إلى الاعتذار عنه بعد كل هذه السنوات، فإن قبولها لك في المرة الثانية هو أكبر اعتذار عملي عنه؛ فإن لم يكن ذلك كافيا وهو كاف عند العقلاء فلماذا لا تعاتبها فيما قالته عنك وتتصافيان لكي تخلص لك السعادة معها؟.

إن رفض فتاة لأي شاب يتقدم إليها لأية أسباب تراها، حتى ولو كانت خاطئة ليس مما ينقص من قدره ولا من جدارته، كما لا ينقص من قدر أي فتاة عزوف أي شاب عن الارتباط بها لأسباب رآها..

لأن من لا يصلح لهذا يصلح لذاك.. ومن يتنافر مع هذه قد يتناغم مع تلك، فما معنى أن تستأدى زوجتك - التي قبلت مشاركتك حياتك وأملت في السعادة معك - ثمن إحساسك أنت المغالي فيه ببعض سماتك الشخصية، أو ثمن ذكرياتك المريرة عن الغربة وعنائها؟.

لقد علمت الحياة زوجتك أن تكون أكثر تعقلا في التعامل مع الواقع وليس من الرحمة أن تجلدها «بخفتها» السابقة إلى نهاية العمر. ونصيحتي لك هي أن تتخلص أولا من إحساسك المرضي بعدم الجدارة الذي يفسد عليك طويتك، وأن تؤمن عن حق بأهليتك لأن تكون إنسانا مرغوبا ومحبوبا وقادرا على نيل احترام الآخرين.. ولسوف يتطهر صدرك تلقائيا من أفكار التشفي والانتقام من شريكة الحياة..

أما الانفصال عنها الآن، وبعد أن اضطربت أحشاؤها بجنينها منك فهو «خيانة» لا تليق بك لهذا الجنين نفسه.. وانتقام أكثر خسة ليس من زوجتك وحدها، وإنما من نفسك أنت وكذلك مولودك القادم الذي لا ذنب له في سوء طوية أبيه.. ولا في سوء اختيار أمه لعباراتها عند رفضها لأبيه قبل 6 سنوات أو أكثر من مجيئه للحياة.

والعفو في النهاية هو الأقرب للرجولة من الانتقام، كما قال ذات يوم حكيم الهند غاندي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذكريات الأليمة

قرأت رسالة «الانتقام الوهمي» للفتاة التي روت عن قسوة أمها، وكيف تفتق ذهنها المشوش عن رغبتها في الانتقام من الأم بسوء سلوكها مع الشبان خارج نطاق الأسرة، وكيف كانت تشعر بالتشفي في أمها حين تخطئ كأنما تنتقم من سوء معاملتها وجفائها لها.

وقرأت رسالة «الانتقام الإيجابي» للقارئة التي روت أنها عانت من ظروف مماثلة. فكان رد فعلها لقسوة الأم عليها هو التفوق والالتزام الخلقي وتحرر الإرادة، دون خروج على الأعراف والتقاليد..

ولقد أثارت الرسالتان تأملاتي واستدعتا ذكرياتي الأليمة.. فلقد نشأت في أسرة محدودة الموارد بين عدد من الشقيقات والأشقاء.. وكنت الابنة الوسطى وأقل البنات جمالا وأكثرهن هدوءا.. فمن بعدي كانت الابنة الصغرى الجميلة المدللة التي أتلقى نيابة عنها السب والضرب والتعنيف، إذا أخطأت هي بدعوى أنني كان ينبغي لي أن أحميها وأمنعها من الخطأ.

و من قبلي كانت الأخت الكبرى التي ينبغي لي احترامها.. والتي يتفادى الأب الاحتكاك بها أحيانا، وإن لم تنج بالرغم من ذلك من قسوته، ولأمر ما لم يستوعبه عقلي الصغير وقتها كان عليّ وحدي أن أحترم الجميع، وأن أخشاهم وأهرول لتلبية طلباتهم.. فإن تقاعست عن ذلك أو أخطات، كان عقابي الحبس في الحمام أو الضرب بالخرطوم أو تكتيف الأيدي والأرجل وضربي ضربا مبرحا.

ولم يكن نصيب إخوتي من قسوة أبي علينا قليلا، لكني كنت دائما صاحبة القدر الأكبر منها.. فلقد حطم فينا أبي سامحه الله كل معاني الكرامة الإنسانية، وجعل منظرنا حين نذهب إلى مدارسنا مثيرا لدهشة من يرانا.. فالعيون تحيطها الهالات السوداء والوجوه متورمة وبها آثار للجروح.. والأذرع بها كدمات.

وفي كل يوم يختار أبي إحدانا لتكون ضحيته التي يحطم عليها أثاث البيت، ويشعر «بالانتصار» حين يتناثر دمها ويضع قدمه على عنقها وهي ملقاة على الأرض في شبه إغماء.. كأنما يقول لنا أنا ربكم الأعلى، حتى صرنا نخاف يده ونظرة عينيه ووقع قدميه على الأرض.

أما أمي فكانت تقف مما يصيب أبناءها على يدي أبيهم موقف المتفرج، وبعد كل علقة ساخنة ينالها أحدنا، تدخل عليه الغرفة وتقول له في شماتة لم أستطع حتى الآن أن أفهم دواعيها: هل ارتحت الآن؟ وعدا ذلك فلقد كانت ترفض غسل ملابسي أو مساعدتي وأنا طفلة في تمشيط شعري، وتكره أن تراني نائمة مستريحة فتفتعل لي عملا أؤديه ويرهقني، وتمزق لي كتبي الدينية التي كنت أشتريها من مصروفي، وتمنعني من الخروج من البيت إلى أي مكان - ولو إلى الطبيب - لأن هناك دائما عملا ينبغي لي أن أقوم به دونها ودون إخوتي، كما كانت

تسافر مع إخوتي وتتركني وحدي مع شقيق لي لديه امتحانه لأخدمه، أو مع أبي المرتبط بعمله لكي أرعاه وأتعرض لأكبر قدر من أذاه وعقابه.

ولم يكن أبي وأمي جاهلين بالرغم من هذه القسوة الشديدة منهما علينا بل كانا متعلمين، ولقد شغل أبي عدة مناصب قبل أن يترك الوظائف ويصبح تاجرا.

ومضت بنا الأعوام وانطويت على نفسي.. وركزت كل جهدي وتفكيري في دراستي، وتقدمت فيها بالرغم من قسوة الظروف المحيطة بي من كل جانب.. وحصلت على شهادتي الجامعية بتفوق.. وارتديت الحجاب على غير إرادة أمي، التي أشبعتني سخرية ولوما لذلك.. وحصلت على شهادة في الكمبيوتر.

وكبر الإخوة.. وتمردوا على الأب القاسي.. والأم الجافة، وبعد أن كان الإخوة يرتجفون رعبا من أبي ولا يجسرون على معارضة أمي في شيء خوفا من أن تشكوهم للأب.. أصبحت هذه الأخت تكيل السباب لأمي إذا أغضبتها فتتجنبها الأم؛ خوفا من سلاطة لسانها وتتكتم سوء أدبها معها عن أبي حتى لا تزداد الابنة تمردا. وأصبحت تلك الأخت شديدة العصبية تثور وتحطم الأشياء، وتتولاها نوبات من الهياج الهسيتري حتى ليأتي الجيران على صوت صياحها.

وأصبح هذا الأخ يهرب من البيت ويشوه صورة أبيه في أعين الآخرين، وذلك بتمرده على إرادة الأب والأم، ويصر على الزواج من فتاة يرفض الأبوان اقترانه بها لعدم ملاءمتها له من الناحية العائلية والاجتماعية.. وذاك يرهق أباه بمطالبه المادية لكي ينفق على ملذاته وأصدقاء السوء.. إلخ.

وهكذا ثار الجميع على الأبوين حتى أصيب أبي بالسكر وأصيبت أمي بالضغط ومضت السنون، وتزوج الأبناء جميعا ما عداي وانصرفوا إلى حياتهم الخاصة، بعد أن مارسوا مع الأب كل وسائل الابتزاز والإجبار لينفق على زواجهم كما أرادوا.

وبقيت مع أبي وأمي عدة سنوات أخدمهما.. ولا حديث لهما إلا عن جحود الأبناء وتنكرهم وسوء طويتهم، ونسيا خلال ذلك أني أحتاج إلى ملابس ومطالب أساسية لا يوفرانها لي حتى أصبح مظهري كالشغالة. ولا لشيء إلا لأني لم أتمرد عليهما ولم أقف في وجهيهما صارخة ومهددة، كما فعل كل إخوتي إلى إن جاء الفرج من السماء التي طالما ابتهلت لها، والتقيت بإنسان على خلق ودين أحبني بصدق وأحببته بإخلاص، ولم أتوقف أمام رزقه القليل وإمكاناته المحدودة.. وإنما قررت أن أعمل معه يدا بيد، وأن أساعده على بناء حياتنا المشتركة.

ولا يتسع المجال هنا لكي أروي لك ما لقيت من أمي وأبي قبل أن يقبلا كارهين بزواجي منه.. ولكن يكفي أن أقول لك إن أمي قد قالت لي يوم الخطبة أنها لم توافق عليها إلا أنه لن يأتيني من هو أفضل منه!.

وإن يوم شراء أثاث عش الزوجية كان يوما حزينا اعتصرت قلبي فيه الحسرة؛ لأنها اشترت لي من الأثاث «ما قل ودل» بالرغم من قدرة أبي المالية على شراء ما هو أفضل منه.. وحتى شعرت بالحرج من زوجي.. وطأطأت رأسي خجلا ونحن

نضع الأثاث في المسكن، أما هو فإنه لم يُعر هذا الأمر أي اهتمام، وبدا سعيدا بى وفخورا.

وتزوجنا.. وشعرت ربما للمرة الأولى في حياتي بالأمان والسلام والاستقرار.. وأحسست بكرامتي الشخصية.. وبأنني «إنسانة عزيزة» على الغير.. وتستحق التقدير والحب والاحترام.

وبعد عام من الزواج أنجبت طفلا.. خفق قلبي بالحب والعطف عليه من اللحظة الأولى التي وقعت فيها عليه عيني.. وتعجبت كيف لقلب أم أو أب أن يقسو على من أنجبه.. وتتمثل فيه بعض روحه ودمه ولحمه.. لقد نذرت لله حين ولد طفلي هذا ألا أضر به ذات يوم أو أقسو عليه.. أو أهينه أو أشعره بالذل والحرمان... وأن أشعره دائما بالعزة والكرامة والسعادة.. وأقدمه للحياة إنسانا سويا محبا لله وللبشر والخير والإنسانية.. وخاليا من العقد النفسية والذكريات الأليمة.. ذلك أنني مازلت حتى الآن أشعر في بعض الأحيان أنني في حاجة للذهاب إلى الطبيب النفسي؛ لكي يعالجني مما ترسب في أعماقي من عقد وأمراض غرسها فيّ أبي. فمازلت حتى الآن أبكي كلما قرأت في بريدك قصة يقسو فيها أم أو أب على ولده..، ولقد كتبت رسالتي هذه لك لكي يعرف الجميع أن القسوة لا تثمر سوى التمرد والجموح.. والعصيان.. والأمراض النفسية..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من الفطرة السليمة أن يحاول المرء دائما أن يجنب أعزاءه ما عانى منه من آلام وأحزان، تجرع كؤوسها في حياته الشخصية وخبر مرارة قسوتها من قبل.

فإذا كان الصحيح هو أن من عاش طفولة طبيعية سعيدة وحظي بعطف الأبوين وحسن رعايتهما له، يكون مرشحا غالبا لمواجهة الحياة بنفسية سليمة وقدرة أكبر على التواصل الصحيح مع الآخرين، ويميل في أغلب الأحيان لأن يكرر تجربة أبويه اللذين رحماه صغيرا مع أبنائه، فإنه ليس من المستغرب كذلك أن يصهر الألم من حرمته اقداره من مثل هذه النشأة السليمة فيرحم صغاره ويشفق عليهم من تكرار تجربته المؤلمة.. ويحرص على أن يعوض فيهم نفسه عما حرم منه من سعادة واستقرار وأمان.

غير أن ذلك لا ينبغي له أن يصرفنا عن التحذير دائما من أضرار القسوة العقلية والبدنية على الأبناء في طفولتهم وصباهم، لأن العائد الأكبر لهما هو تشويه القيم والمعايير لدى الأبناء.. واختلال الشخصية والترشيح للعجز عن التواصل السليم مع الحياة، ويكفي لتأكيد ذلك أن من يكابد مثل هذه القسوة المفرطة في طفولته وصباه.. قد يظل طوال العمر يعاني من بصماتها غير المرئية على نفسيته وشخصيته ونظرته للحياة والآخرين، وقد يرشحه ذلك إذا تضافرت معه عوامل

أخرى للانحراف النفسي والخلقي.. فإن نجا من هذه المضاعفات بقيت له الذكريات الأليمة تطارده من حين لآخر وتجدد أحزانه إذا تلقت مثيرات جديدة تستدعيها من غياهب النسيان، كما يكون الحال معك يا سيدتي حين تقرئين عن تجربة ابن أو ابنة مع قسوة أحد الأبوين.

والحق هو أن خير ما يقدمه الآباء والأمهات لأبنائهم هو طفولة سعيدة وتربية رشيدة، تستهدي بالقيم الدينية والأخلاقية في تنشئتهم، وترشحهم لأن يكونوا بشرا أسوياء في المستقبل.

وهذه الطفولة السعيدة الآمنة والتربية الرشيدة ليستا هبة يتفضل بها الآباء والأمهات على الأبناء، وإنما هما واجب ديني وأخلاقي عليهم تجاههم، ماداموا قد جاءوا بهم إلى الحياة مع عالم الغيب والشهادة.

والمؤسف حقا هو ألا يستوعب بعض الآباء والأمهات جسامة هذه المسؤولية، غافلين عن أن الأبناء هم ودائع ثمينة استودعهم الله سبحانه وتعالى إياها، ولسوف يسألون أمامه هل حفظوها أم ضيعوها.. ففي الحديث الشريف الذي رواه الإمامان أن الرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها.

وفي الحديث الشريف الذي رواه ابن حيان أن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته.

ولقد روى الرواة أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه قد شهد احتضار حفيد له من فاطمة رضي الله عنها، ففاضت عيناه بالدمع، وتعجب لذلك سعد بن عبادة وقال له: ما هذا يا رسول الله؟!.

فأجابه: هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

فكيف يحق إذن لأب ألا يتعامل مع بناته الضعيفات وأبنائه الصغار سوى بالضرب والجرح والإذلال ووطء الأعناق وإسالة دمائهم حتى لتلطخ ثيابهم ويمضون إلى مدارسهم ووجوههم متورمة ودامية؟

وماذا ينتظر مثل هذا الأب المفرط في قسوته على أبنائه قسوة تكاد تكون سادية ومرضية من هؤلاء الأبناء، حين يشبون عن الطوق ويتحررون من أسر الخوف؟

لقد قال لنا رسول الله صلوات الله وسلامة عليه: أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم. وليس من إكرام الأبناء القسوة المفرطة عليهم ولا التلذذ برؤية دمائهم تسيل على أجسامهم.

وهذه القصة تؤكد لنا ما نؤمن به دائما من أن أدب المقهور مع قاهره ليس أدبا حقيقيا، وإنما هو «تقية» لاتقاء أذاه وكظم الغيظ والمشاعر السلبية إلى أن تجي اللحظة الملائمة للانفجار وشق عصا الطاعة.

كما أن رسالتك هذه يا سيدتي تلفت أنظارنا إلى مشكلة أخرى حقيقية من المشاكل الأسرية، التي لا تحظى بكثيرٍ من الفهم والدراسة، وهي مشكلة الابن الأوسط بين عدد من الأبناء.

ووجوب فهم نفسيته وتفادي أخطاء التعامل معه التي تورثه غالبا الشعور بالنقص وقلة نصيبه من رعاية الأبوين واهتمامهم، فهذا الابن يشعر في كثير من الأحيان بأنه الابن المهمل من بين أبناء الأسرة؛ لأنه لا يحظى بالتدليل الذي يناله الابن الأصغر بحكم سنه، ولا بالاحترام الذي يفوز به الابن الأكبر بحكم وضعه في الأسرة، فيصبح من جراء ذلك أكثر حساسية من إخوته وأكثر شعورا بالنبذ وعدم الاعتبار.. وأكثر شكوى من قلة نصيبه من الرعاية والاهتمام، والعدل كل العدل هو أن يشعر الأبناء جميعا بحظوتهم المتساوية لدى آبائهم وأمهاتهم أيا كان ترتيبهم في الأسرة.

وفي النهاية فإني أقول لك يا سيدتي: إنه كما تكون ذكرياتنا السعيدة زادا لنا نستمد منه العون على الصمود أمام آلام الحياة حين تجيء. فإن ذكرياتنا المريرة قد تكون كذلك دافعا لنا لأن نحرص على السعادة المتاحة لنا.. وعلى حمايتها من الانهيار، فاجعلي من ذكرياتك المؤلمة دافعا إيجابيا لك للاستمساك بسعادتك الحالية والحرص عليها، ودافعا أكثر نبلا وإنسانية للحرص على الرفق بطفلك وحسن رعايته، وتجنيبه كل ما عانيت منه وخبرت مرارته من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليل الطويل!

منذ سنوات وأنا أريد أن أكتب لك قصتي لأشكر نعمة ربي بالتحدث عنها.. ولأقول لك إنني كثيرا ما وجدت في قصص حياة أبطال بابك الذين تعاطفت معهم ما أعانني على الصمود للظروف الصعبة.. واجتيازها... أبدأ بأن أقول لك إنني وشقيقتي من هؤلاء الذين سميتهم أنت في بعض تعليقاتك «بأبطال الحياة» الذين يجدون أنفسهم في مواجهة ظروف شديدة الصعوبة، فيكافحون كفاح الأبطال لاجتيازها دون أن يفقدوا شرفهم أو قيمهم الدينية والأخلاقية.. ودون أن تتسمم روحهم بالكراهية للحياة والبشر، وأستطيع أن أقول إننا كذلك والحمد لله... ونرجو من الله العلي القدير أن نظل كذلك إلى نهاية العمر.

فأنا شاب في السابعة والعشرين من عمري.. عشت طفولة عادية بين أبوين طيبين وأخت تصغرني بعامين، وكان أبي موظفا بمصلحة حكومية وأمي ربة بيت طيبة لا تعمل، ونعيش في شقة من ثلاث غرف بإيجار قديم في الدور الأرضي في أحد المنازل بحي شعبي..

وكانت حياتنا تمضي كغيرنا من الصغار نذهب إلى المدرسة وترجع فنلعب في الشارع مع الرفاق بعض الوقت ونهرول إلى البيت مع ظهور أبينا عائدا من عمله.. ونلتف حول مائدة الطعام ونستمتع بشرب الشاي بعد الغداء.. ثم نجلس لأداء واجباتنا المدرسية تحت عيون أمنا، ويدخل أبي لينام.. ثم يصحو فيجلس على الكنبة التي تقع تحت نافذة الصالة... يرقب المارة في الشارع أو يخرج إلى المقهى إلى أن تزلزلت حياتنا فجاة بوفاة أبي، دون سابقة مرض أو إنذار وهو في أوائل الأربعينات من عمره.. وأنا في سن العاشرة وأختي في سن الثامنة..

وتكدرت أيامنا.. وران عليها الحزن والاكتئاب.. وافتقدنا أبانا الطيب.. وإحساس الأمان الذي كنا نحس به في وجوده.. وواجهت أمي الحياة في خوف وساعدها خالي الوحيد على إنهاء إجراءات المعاش، الذي تبين أنه مبلغ ضئيل لقصر فترة خدمة أبي، وعرفنا جفاف الحياة ونقص النقود في سن مبكرة، وتوقفنا منذ وفاة أبي عن شراء أي ملابس جديدة، وأصبحنا نرتدي ملابس أبناء خالنا القديمة.

ولما كان هو أيضا موظفا محدود الدخل.. فلقد كان لا يشتري لأبنائه الجديد من الملابس إلا بعد أن تكون ملابسهم قد بليت تماما.. فكانت أمي ترتقها.. وتقلبها.... وتصبغها أحيانا لكي نستطيع ارتداءها..

وبالرغم من ذلك فلقد مضت بنا الأيام.. وكان يكفينا برغم كل العناء والحرمان أن نجتمع حول أمنا كل ليلة في المساء لنسمع منها ذكرياتها عن أبينا وكيف تعرفت به وكيف تزوجته.. وأحلامه لنا بأن ننجح ونتفوق في دراستنا ونحصل على شهاداتنا العليا، ونعمل بمراكز مرموقة ونتزوج ذات يوم ويصبح لكل منا أسرته السعيدة.

لكن حتى هذه الحياة الجافة الآمنة استكثرتها علينا الأقدار فيما يبدو، فبعد قليل بدأت أمي تشكو من الآلام والأوجاع الشديدة، وبدأ خالي يطوف بها على المستوصفات وبدأت تحتجز في المستشفيات بالأسابيع الطويلة.. فننتقل نحن للإقامة في بيت خالنا الضيق والمزدحم بمن فيه وننام على الأرض في حجرة الصالون، ونواجه مشكلة عسيرة في الانتظام في الدراسة والمذاكرة.. وزيارة أمنا إلخ..

وبعد عدة شهور من الاضطراب رحلت أمنا الغالية عن الحياة ولحقت بأبينا، وأنا في الخامسة عشرة من عمري وأختي في الثالثة عشرة، وبكيناها حتى جفت دموعنا.. وشعرنا بعد رحليها بأننا قد أصبحنا في العراء لاشيء يسترنا أو يحمينا من صواعق السماء.

وبعد فترة الحزن الطويل.. وبعد أن لمسنا نحن أيضا معاناة أسرة خالنا في حياتها، تم الاتفاق على أن نرجع أنا وأختي للإقامة في مسكننا الحالي على أن يزورنا خالي من حين لآخر، ليطمئن علينا، وقال لنا خالي وهو يداري دمعه إنه لولا ضيق مسكنه ووجود بنات لديه في مثل سني لما رضي أبدا بأن نفارقه ونرجع لبيتنا، وتقبلنا نحن حياتنا باستسلام وبلا غضب من أحد وخففنا عن خالنا حرجه وأحزانه..

وغادرنا هو في أول ليلة لنا وحدنا في شقتنا، بعد أن زود مطبخنا ببعض التموين والأطعمة وأعطاني مصروف الأسبوع، وشدد علينا ألا نفتح الباب لأحد في الليل مهما تكن الظروف، وكرر عليّ كلمته التي راح يرددها لي منذ رحيل أمي، وهي إنني قد صرت رجلا ومسؤولا عن حماية أختي، وأنني جدير بالقيام بهذه المسؤولية ووافقته على ما يقول وأنا أتمنى في أعماقي أن أقول له ولماذا تحكم عليّ أقداري بأن أكون هذا «الرجل» في سن الخامسة عشرة.. وأمثالي يلهون في الشوارع ويتمتعون بحماية الأهل وحنانهم.. لكني لم أتكلم.. ولم أعترض لأنه لا ذنب لأحد في ظروفنا.

وبعد إغلاق الباب وراء خالي انفجرت أختي في البكاء.. وراحت تولول وتتساءل: كيف سنعيش.. وماذا سنفعل وحدنا.. ومن يحمينا.. فطمأنتها وهدأت روعها، وقلت لها إن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنا؛ لأننا لم نرتكب ذنبا ولم نؤذ أحدا، وكان أبونا رجلا طيبا يصلي ويصوم وكانت أمنا كذلك.. ونحن أيضا نصلي ونصوم منذ الصغر، وأقسمت لها أنني سأحميها من كل سوء وسأكرس حياتي لرعايتها.. وأننا سنتعاون معا على مواجهة كل الصعاب ولن ننفضح بين الناس أبدا بإذن الله.

ونظمنا حياتنا بالمصروف الأسبوعي الذي يعطيه لنا خالنا من معاشنا عن أبينا وأصبحنا نرجع من المدرسة، فنتعاون على إعداد الطعام وتنظيف الشقة والمذاكرة ثم نتلازم طوال الوقت، فإذا خرجت لشراء شيء اصطحبت أختي معي، وإذا أرادت هي زيارة صديقة لها اصطحبتها حتى باب بيتها وحددت لها الموعد

الذي سأرجع فيه لاصطحابها للبيت، وإذا زارتها بعض زميلاتها أغلقت عليهن باب غرفة أمنا.. وجلست على الكنبة في مجلس أبي حتى تنتهي الزيارة..

وقرب اليتم والوحدة والخوف من كل شيء بيننا، فأصبحنا لا نفترق إلا في ساعات الدراسة.. وكل أسبوع يزورنا خالنا ويطمئن على أحوالنا أو يدعونا للغداء معه..

واجتزنا عامنا الدراسي الأول بعد وفاة أمنا بصعوبة، وفي إجازة الصيف خرجت أبحث عن عمل لأوفر لنا بعض نفقات العام الدراسي الجديد، وعرضت نفسي على صاحب المغسلة القريبة لأعمل لديه في كي الملابس.. لأنه عمل لا يحتاج إلى خبرة طويلة سابقة.. فطلب مني أن أعمل في البداية كصبي يجئ إليه بالملابس من عند العملاء. وقبلت ذلك دون غضاضة، وأصبحت أطوف على البيوت أطرق أبوابها وأسأل عن «المكوة» وأحمل الملابس المكوية لأصحابها.. وأرجع بالأجرة لصاحب المغسلة، وجمعت في نهاية الشهر من البقشيش نحو أربعين جنيها، سعدت بها وأعطيتها لأختي لتشتري لنفسها بعض احتياجاتها وفاجأني الرجل في نهاية الشهر بأن أعطاني أربعين جنيها أخرى، وقد كنت أظنه سيعتبر البقشيش أجري الوحيد عن عملي معه.

وانقضت شهور الصيف، وبدأنا العام الدراسي الجديد وانقطعت عن العمل.. لكن ما ادخرته من شهور الصيف نفد سريعا وتجهمت الحياة أمامنا.. فعدت لصاحب المغسلة ورجوته أن يسمح لي بالعمل معه 4 ساعات كل مساء في كي الملابس، ووافق الرجل تقديرا لظروفي، وأصبحت أخرج من المدرسة فأتناول طعامي خطفا مع أختي ثم اهرول إلى المغسلة، وأرجع منها في الثامنة مساء فأذاكر دروسي وأجلس مع أختي إلى أن ننام، وحصلت على الثانوية العامة بمجموع متوسط ونصحني خالي بالاكتفاء بهذا القدر من التعليم والبحث عن عمل، لكن أين أجد مثل هذا العمل بالثانوية العامة..

فاستخرت الله وقررت أن أواصل الدراسية مهما تكن العقبات، وشجعتني أختي على ذلك.. وساعدني أن صاحب المغسلة كان لا يتأخر عني إذا طلبت منه قرضا لأواجه به أي طارئ فيعطيه لي ويقسطه عليّ من أجري، والتحقت بكلية التجارة شعبة المحاسبة..

وواجهت أنا وأختي الحبيبة أياما شديدة العناء.. وكلما ضعفت مقاومة أحدنا شد الآخر من أزره.. وهون عليه وذكره بآمال أبينا وأمنا فينا، ويطول الحديث عن الأزمات الخانقة التي اعتصرتنا طوال سنوات الجامعة، لكن يكفي أن أقول لك إنه لولا أن خالي كان يقتطع الإيجار الشهري من المعاش ومبلغا الفاتورة الكهرباء قبل أن يسلمه لنا لكنا قد فقدنا مأوانا الوحيد ولأمضينا معظم أوقاتنا في الظلام.. وعدا ذلك فلقد كنا نلاطم الحياة وحيدين وتلاطمنا ونتحايل على تدبير ثمن الكتب أو نستعيرها، لتوفير الرسوم.. وتأمين بعض الملابس المستعملة التي تستر مظهرنا.

وفي ظل هذه الظروف، التحقت أختي بكلية البنات وفعلت المستحيل لكي أوفر لها مطالبها، وأحافظ لها على الحد الأدنى من مظهرها.. وحرمت نفسي من الضروريات لكي تجد أجر مواصلاتها للكلية، وذكرتها حين التحقت بالجامعة بأننا أيتام ولا سند لنا في الدنيا سوى عملنا وأخلاقنا، وأن علينا أن نحافظ على سمعتنا أكثر من غيرنا لأن ضعفنا قد يغري بنا الطامعين.. وطمأنتني هي إلى أنها تعي ظروفنا جيدا.

ومضت أعوام الجامعة عليها وعلى في عناء شديد.. وفي عامي الجامعي الأخير توسط لي أحد زملاء الكلية، ربما لأنه قد لمس رقة حالي وتفوقي في مادة المحاسبة، للعمل بعد الظهر في مكتب للمحاسبة يملكه عمه.. فعملت به مقابل مكافأة صغيرة لا تزيد عن مكافأتي عن العمل في كي الملابس، ولكني رحبت بذلك لاكتساب الخبرة، وعسى أن أجد موضعا لقدمي في هذا المجال بعد التخرج.

وفي هذا المكتب التقيت بزميلة متدربة مثلي، علمت فيما بعد أنها من أقارب صاحب المكتب اتخذت مني موقفا عدائيا من البداية ولا أدري لماذا بالرغم من التزامي بالأدب مع الجميع وراحت تستفزني من حين إلى آخر، وأنا أحاول بكل جهدي تفاديها حتى لامني زميل آخر على ضعفي معها، إلى أن جاء يوم وفوجئت بها تقول لي في لهجة استفزازية أمام الزملاء: لماذا يبدو مظهرك كالسعاة ولماذا لا تهتم بملابسك.. ألست تقبض مكافأة مثلنا؟.

فتضرج وجهي بالاحمرار وانعقد لساني.. وسمعت زميلي ينهرها فتمالكت نفسي ورجوته ألا يشتبك معها.. وقلت لها بعد جهد جهيد إنني بالفعل أقبض مكافأة مثلها، لكن ظروفي قاسية.. وما دام مظهري يزعجها إلى هذا الحد فإنني سوف أريحها منه ومني إلى الأبد، وغادرت المكتب راجعا إلى بيتي، ورويت لأختي ما حدث فبكت ورجتني ألا أحزن لذلك، وسوف يعوضنا الله عما انقطع من رزقنا برزق غيره إن شاء الله.

وأمضيت يومين بلا عمل سوى الدراسة.. وفكرت في العودة إلى المغسلة مرة أخرى.. وقبل أن أفعل فوجئت بزميلي الذي ثار من أجلي في المكتب يطرق عليّ الباب ويدعوني لمقابلة صاحب المكتب، واستقبلني الرجل عاتبا عليّ تركي العمل دون الرجوع إليه، وطيب خاطري وأكد لي أنه راض عن عملي، ويتنبأ لي بمستقبل طيب ويريد مني الاستمرار معه بعد التخرج، ثم أنهى المقابلة بأن أبلغني بأنه قد رفع مكافأتي، ابتداء من هذا الشهر، وأمر بأن تصرف لي كذلك خلال الشهرين اللذين سأنقطع فيهما عن المكتب للاستعداد للامتحان، وشكرته بحرارة، ودعوت له بطول العمر والصحة والستر في الدنيا وفي الآخرة، وانصرفت راضيا.

وتغيرت معاملة هذه الفتاة معي إلى النقيض منذ ذلك الحين.. وراحت تعتذر لي عن سابق إساءتها لي، وتقول إنها أساءت فهم صمتي وعزلتي وعزوفي عن مشاركة الزملاء في اهتماماتهم، وأرادت أن تزيل الحواجز بيننا فقالت لي إنها من الفرع الفقير في أسرة صاحب المكتب، وإنه سمح لها بالعمل في مكتبه كمساعدة لأسرتها.. وبالتالي فإن ظروفها لا تختلف كثيرا عن ظروفي، وشكرتها على

كلماتها وتعاملت معها بنفس خالية من الموجدة، فلم تمض فترة أخرى حتى أصبحنا صديقين حميمين..

ولم تمض عدة أسابيع حتى أعترفت لي بحبها وإعجابها بى وبأخلاقي واستقامتي ووجدتني أنا أيضا، أعترف بحبي لها وإشفاقي عليها في الوقت نفسه من ظروفي القاسية.. ولكنها لم تأبه لذلك، وأكدت لي وقوفها إلى جانبي حتى النهاية.. وصارحت أختي بما حدث، فوجدتها هي الأخرى تشجعني على الارتباط بها، وتخفف عني الصعاب وتطلب مني ألا أجعل من ظروفنا سببا لحرماني من السعادة التي نحتاج إليها أكثر من غيرنا.

وتخرجت في كليتي وتخرجت زميلتي وثبت أقدامي في المكتب، أما هي فقد نجح قريبها في تعيينها في شركة استثمارية، وسألتني عن خطتي للمستقبل، فقلت لها إنني لن أستطيع الإقدام على الارتباط الرسمي بها إلا بعد تخرج أختي واطمئناني عليها.. وتحسن ظروفي، وتوقعت أن تثور على وتنهي علاقتنا، ففوجئت بها تؤكد لي استعداداها لانتظاري بضع سنوات أخرى.

وتخرجت أختي بتفوق والحمد لله وعملت كمدرسة بعقد في إحدى المدارس الخاصة إلى أن يجي دورها في التعيين وتحسنت ظروفنا بعض الشيء..

وجاءني ذات يوم من يطرق بابي ويقدم نفسه لي ويطلب يد شقيقتي مني، واستمهلته حتى أعرض الأمر عليها.. فوجدتها مرحبة به، وسألتها عما إذا كان يعرف ظروفنا جيدا، فأجابت بالإيجاب وتحريت عنه فوجدته شابا طيبا متدينا ومن أسرة صالحة ويعمل بالتدريس، فحددنا موعدا للخطبة.. وطفرت عيني بالدمع وأنا أرى أختي سعيدة من قلبها في ليلة خطبتها، وإن كنت قد أشفقت عليها من وحدتها في هذه الليلة بلا أب ولا أم ولا أخت ولا شقيق سواي، ولولا وجود خالي وزوجته لشعرت بفراغ الدنيا كلها من حولنا في هذه المناسبة السعيدة.

وخلال عامين، كانت شقيقتي قد زفت إلى عريسها بعد معجزات سماوية وتسهيلات إلهية، لإعداد جهازها وسترها في نظر زوجها وأسرته بقدر الإمكان، ولم يزعجني أبدأ أنني قد كبلت نفسي بأقساط شهرية لسداد باقي ثمن جهازها المتواضع.. إلى جانب ما تدفعه هي أقساط.. وإنما شعرت بأنني أؤدي واجبي تجاهها وأنفذ وعدي لها بحمايتها حين خلت الدنيا علينا بعد وفاة أمنا.

وبترشيح من صاحب مكتب المحاسبة الفاضل، عملت محاسبا بشركة كبيرة إلى جانب استمراري في العمل معه بعد الظهر، ووجدت نفسي بعد أربعة أعوام من التخرج، ومع سداد آخر قسط من جهاز أختي قادرا على الاهتمام بحياتي الخاصة، فأبديت رغبتي لفتاتي في التقدم لأهلها.. ووجدت كل شيء معدا ومرتبا من جانبها.. ولم يفاتحني أحد في أي شروط مادية.. وتركت لها هي أن تحدد ما تراه مناسبا في ضوء إمكاناتي التي تعرفها جيدا، وتم كل شيء خلال شهور وجددت الشقة القديمة.. واستقبلت جهاز العروس الجديد.

وفي ليلة الزفاف وعقد القران.. وجدت أختي لا تسعها الفرحة وعلمت من فتاتي أنها ذهبت إليها في الليلة السابقة.. ليلة الحنة حين اجتمعت بعض الصديقات في بيت العروس يغنين ويصفقن ويرقصن، وأنها استدرت دمعها رغما عنها بفرحتها الطاغية وبحديثها المستمر عني وكيف أنني أبوها وأخوها وأمها وكل شيء لها في الحياة، وكيف أنني شاب طيب وسوف أسعدها لأنني أحبها ولا أحمل في قلبي إلا الحب ولا أعرف الحقد أو الكراهية لأحد.

وفي الحفل البسيط الذي أقمناه في مسكني احتفالا بالزفاف، جلست إلى جوار عروسي، وأمامنا الأهل وأختي وزوجها الطيب.. فسرحت بفكري رغما عني إلى الوراء، وتذكرت أول ليلة أغلق علينا فيها باب هذه الشقة نفسها وحدنا بعد انصراف خالي وأنا في الخامسة عشرة من عمري وأختي في الثالثة عشرة.. والمستقبل مظلم أمامنا ومجهول.. وخوف الدنيا كله يتجمع في داخلنا وإحساسنا بالانكسار والضياع والغلب الأزلي يطغى على كل مشاعرنا..

وتساءلت: هل كنا في تلك الليلة الكئيبة نتصور أننا سوف نجتاز كل الصعاب التي اعترضت طريقنا، ونصل ذات يوم إلى بر الأمان فتتخرج شقيقتي وتعمل وتتزوج، وأتخرج أنا وأعمل وأتزوج كغيرنا من الشباب؟ وهل لو كنا توقفنا يومها واستهولنا الطريق الطويل الذي ينبغي لنا أن نقطعه لكي نتغلب على ظروفنا.. هل كنا وجدنا الشجاعة والقدرة على السير فيه حتى نهايته؟ لقد أصبح لكل منا الآن حياته وأسرته وعمله واجتزنا محنتنا بإيماننا بالله سبحانه وتعالى، وبأنه لا يتخلى عن الضعفاء والمساكين وعمن يعتصمون بدينهم وخلقهم وقد كتبت لك رسالتي هذه لكي أقول لقرائك إن لكل عناء نهاية، وإنه بالصبر والكفاح والإيمان بالله والتمسك بالدين والأخلاق يعبر الإنسان كل المحن والابتلاءات.. والحمد لله أننا قد عبرنا محنتنا دون أن نخسر أنفسنا أو ننحرف، أو نفقد حبنا للحياة والبشر والخير، أو تتشوه نفوسنا بالحقد والمرارة.. وأرجو أن تقول ذلك لقرائك كما تفعل دائما... كما أرجو أن تقول لمن يجدون أنفسهم أمام ليل طويل من العناء لا يبدو له فجر قريب في نظرهم إن الليل مهما يطل فلابد له من نهاية، ولا بد لكل سائر على الطريق الطويل أن يصل ذات يوم إلى غايته، والمهم هو ألا ييأس الإنسان من رحمة ربه.. وألا يتخلى عن مبادئه ودينه، ولعلك لاحظت أنني لم أشك في رسالتي من شيء، فإذا كان لابد من الشكوى فلعلي أقول لك هو أن مشكلتنا الوحيدة الآن هي في افتراق اختي عني بعد هذا العمر الطويل من التلازم والامتزاج.. وفي «خوفها» المرضي عليّ من أي عارض يصيبني، ولو كان لفحة برد بسيطة، وخوفها المماثل زوجها من كل شيء.. وترديدها دائما أنها قد احتملت الكثير والكثير، ولم تعد لديها أية طاقة على أن تفقد أحدا آخر ذات يوم..

ورغبتها لو استطاعت في أن تشد على «الغطاء» كل ليلة لتطمئن إلى أنني أستمتع بالدفء، وزوجتي تحبها كثيرا وتتعاطف معها وتتفهم دوافعها.. وقد تكشفت لي هي الأخرى عن نبع آخر من الحنان.. والخوف من المستقبل، وأصبح هاجسي الآن هو أن اطمئن كلا منهما على أن كل شيء على ما يرام.. وأن الله لن يتخلى عنا أبدا بإذن الله.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لقد قلت أنت يا صديقي بقصة كفاحك مع شقيقتك كل ذلك وأكثر وبأبلغ مما أستطيع أنا أو غيرى أن يقوله.. فقلت لنا إن الليل الطويل مهما يطل فلابد له من فجر جديد يبزغ معه ضوء الشمس، حاملا الأمل والعزاء للمجهدين.

وقلت لنا ما قاله لنا الشاعر الإنجليزي ذات يوم: إذا كان الشتاء قد جاء فليس الربيع ببعيد، وأكدت لنا أن طول الطريق وعناءه، لا ينبغي لهما أن يردا أحدا عن السير الحثيث فيه؛ حتى يصل إلى غايته ذات يوم حتى ولو توجع من عنائه.

وقلت مع الإمام علي بن أبي طالب: آه من بعد السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق، قلت لنا كل ذلك بأبلغ الكلمات وأبسطها..

وذكرتنا أن أعظم الأعمال إنما تتحقق بالمثابرة والدأب والاستمرار في بذل الجهد بلا كلل، مع الإيمان بالله والتمسك بالقيم الأخلاقية والدينية والثقة في النفس وفي عدالة الأهداف التي يسعى المرء إليها.

فإذا كان ثمة ما أستطيع أن أضيفه إلى ذلك فهو فقط أن الأهم من بلوغ الغايات المنشودة في الحياة هو أن نسلك إليها السبل الشريفة لكيلا نفقد خلال سعينا إليها ما لا يعوضنا عنه شيء، حتى ولو بلغنا فيما بعد قمم الجبال وهو روح الإنسان ودينه وشرفه وقيمه الأخلاقية وصفاء نفسه وخلوها من الأحقاد والمرارات، وإيمان المرء بخيرية الحياة والبشر على الرغم من كل العناء، فهذا هو الفوز العظيم حقا في مثل هذه الملاحم الحياتية..

ومن يصمدون لأعاصير الحياة بغير أن يضلوا الطريق أو ينحرفوا حقا هم لا يتخلى عنهم ربهم ويجزيهم الله عن صبرهم وحرمانهم وصمودهم خير الجزاء، وهم أيضا من يقول أحدهم لصاحبه كلما اشتد العناء كما جاء في الذكر الحكيم.. «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا» وينطبق عليهم ما جاء في الكتاب المقدس من أن «كل الأشياء تعمل معا للذين يحبون الله».

فأما فراقك لأختك بعد طول تلازم وامتزاج فهو سنة الحياة التي لا مبدل لها، وما البعد المكاني بمفرق في النهاية بين القلوب التي جمع الله بينها برباط متين إلى يوم الدين

وأما هلعها المرضي عليك وعلى زوجها من كل شيء فأمره مفهوم وهوصدى للخوف القديم المستقر في النفس من الغد، وبصمة غائرة من بصمات الشقاء واليتم المبكر وفقد الأبوين وانعدام النصير ومواجهة الحياة وحيدة مع شقيقها الصبي الحائر بلا سند ولامعين.

ونحن كلما عظم حبنا لأحد اشتد خوفنا عليه من أن نفقده ذات يوم.. غير أنه «ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» ولسنا نملك في النهاية إلا أن نضرع لله سبحانه وتعالى آناء الليل وأطراف النهار أن يحفظ علينا من نحبهم ومن لا نستشعر السعادة إلا وهم يضيئون كالأقمار الساطعة سماءنا ولسوف يتراجع هذا الخوف المرضي في نفس شقيقتك تدريجيا مع ترسخ أسباب الشعور بالأمان في حياتها.. ودواعي الاطمئنان للمستقبل الواعد بإذن الله.

فأما زوجتك وقصة تعرفك الغريبة بها، فلقد ذكرتني بما يقال أحيانا من أن بعض أعمق قصص الحب وأكثرها نجاحا واستقرارا كانت قد بدأت في البداية بمواقف عدائية، كتلك التي اتخذتها منك زوجتك حين تعرفت عليها.

ولقد روى لنا الرواة أن الشاعر الأموي جميل الذي اشتهر بحبه لبثينة وغزلياته الرائعة فيها، كان قد تعرف عليها في البداية في موقف عدائي مماثل في واد اسمه «بغيض»، تبادلا فيه السباب بسبب الخلاف على ورود الماء، ثم لم يلبث هذا العداء أن تحول في قلب جميل إلى عشق سارت بذكره الركبان.. وقال هو عن ذلك:

وأول ماقاد المودة بيننا بوادي بغيض يابثين سباب

وقلنا لها قولا فجاءت بمثله لكل كلام يابثين جواب!

فعسى أن يخلد حبكما في القلوب خلود حب جميل وبثينة.. وعسى أن تسعد أنت وشقيقتك وشريكا حياتكما بأيامكم الحاضرة والمقبلة بإذن الله.. وعسى الله سبحانه وتعالى أن يجزل لكم جوائز السعادة والوفاق والأمان في حياتكم بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرة الصحيحة

قرأت رسالة «قسوة الكلمات» للشاب الذي امتحن بالمرض اللعين، و قسا عليه طبيبه الأول في حديثه إليه عن مرضه حتى سد عليه أبواب الأمل في الحياة، وباشر علاجه لدى طبيب آخر حتى أتى نتائجه واسترد صحته، واستشار طبيبه في أمر الزواج فنصحه به بلا تردد، وكتب إليك يستشيرك هل يصارح من يتقدم إليها بتاريخه المرضي أم يكتمه عنها خوفا من رفضها له لهذا السبب. وأريد أن أقص على هذا الشاب المؤمن قصتي الشخصية ليستفيد بتجربتي فيها.

فأنا سيدة شابة عمري ٢٠ عاما تقدم لي بعد تخرجي شاب يكبرني بست سنوات ويعمل بالخارج، ولم ألتق به من قبل.. وإنما كان لقاؤنا الأول في بيتنا حين تقدم لطلب يدي، والغريب أننا قد شعرنا نحن الاثنين بتقارب روحينا من الوهلة الأولى، وتمت الخطبة الرسمية، وكان الاتفاق هو أن يرجع من مقر عمله بعد عام لعقد القران والزواج، وخلال هذا العام ازداد تقاربنا معا من خلال الخطابات والشرائط والمكالمات.

وقرب نهايته شعر خطيبى ببعض الآلام فصبر عليها إلى أن رجع إلى مصر.. ثم عرض نفسه على الأطباء، فإذا بحظه السيئ يوقعه في طبيب مماثل للطبيب الأول في رسالة «قسوة الكلمات) وإذا بهذا الطبيب لا يترفق به في إبلاغه بحالته الصحية، وإنما يزيد على ذلك بأن يصدمه بقوله إن حياته لن تطول أكثر من ستة أشهر، وتقبل خطيبي الصدمة واستسلم لقضاء ربه، لكنه لم يسترح لهذا الطبيب واتجه إلى طبيب آخر، فهدأ روعه.. وبدأ في علاجه وأجرى له جراحة لاستئصال ورم خبيث بالقولون، وبعد انتهاء الجراحة، وعلم أسرتي بحقيقة المرض قررت فسخ خطبتي لهذا الشاب.. وتمسكت أنا بالخطبة واستكمال المشوار معه، خاصة أنه إنسان متدين وكريم الخلق ويشهد له الجميع بذلك، كما أنه لاذنب له فيما امتحنته به الأقدار.

وأقنعت خطيبي ببدء العلاج الكيماوي والإشعاعي على الفور، واكتملت الجلسات كلها بسلام وحققت هدفها والحمد لله.. لكن أسرتي عادت من جديد للإصرار على فسخ الخطبة خوفا على من المجهول.. وكثر الكلام في بيتنا عن الحياة والموت وتأثير الإشعاع على الإنجاب ولم تجد محاولاتي مع أسرتي في تغيير موقفها، مع إيماني بالكامل بأن كل شيء بأمر الله وحده، وبأنه كم من إنسان سليم معافى قد يموت فجأة، وكم من مريض قد يظن به البعض الهلاك يعمر حتى يلقى وجه ربه في شيخوخته إلخ.

ولم أستطع في النهاية تحمل ضغط أسرتي على للنهاية وتم فسخ الخطبة وسافر خطيبي إلى مقر عمله، وحاولت أنا مع أسرتي لمدة عام كامل استئناف الخطبة من جديد، وظللت على اتصال بأخته أطمئن منها عليه.. وأبلغها بمحاولاتي مع أهلي، وبعد عام رجع إلى مصر وحاولت الاتصال به مرة ثانية.. وواصل هو من جديد جهوده مع أسرتي، وأثبت لها بالتحاليل والتقارير الطبية شفاءه التام وسلامته..

واستمرت المحاولات المضنية من جانبه وجانبي بضعة شهور إلى إن وافقت أسرتي في النهاية على زواجنا.

فلم نضيع وقتا بعد أن ضاع منه الكثير، وسارعنا بعقد القران وتم الزواج منذ 15 شهرا وها نحن الآن في منتهى السعادة الزوجية، وقد من الله علينا بزيارة بيته الحرام، ويعلم الله سبحانه وتعالى عمق حبي لزوجي وسعادتي معه، وعمق حبه لى وسعادته معي، وقد مضت الآن على العملية الجراحية ثلاث سنوات كاملة، ولم يشعر زوجي بأي ألم أو تعب والحمد لله.

وأقول لكاتب رسالة «قسوة الكلمات» لاتنظر وراءك ولا تتردد في الزواج، ولكن لابد لك من أن تصارح من سوف تتقدم لخطبتها بحقيقة مرضك السابق، وألا تخفي عنها شيئا، فقط عليك أن تختار ذات الدين والأخلاق لكي ترعى الله فيك، وتنظر إلى الأمر النظرة الصحيحة ولا تظلمك بشيء لابد لك فيه.. وادعو الله سبحانه وتعالى له في النهاية بأن يرزقه الزوجة الصالحة، وأن يمن على الجميع بنعمة العافية والسعادة إن شاء الله.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هناك قلة من الأطباء كطبيب كاتب رسالة القسوة الكلمات الأول وطبيب زوجك الأكثر قسوة، ينطبق عليهم قول الشاعرة الأديبة عائشة التيمورية في رثاء ابنتها: «إن الطبيب بطبه مغرور!» فهم ينسون أحيانا في غمار تعاملهم مع الحقائق المادية المجردة أن الموت والحياة من أسرار الخالق العظيم وحده، وأن سلامة الأبدان لا تطيل الأعمار عن أجالها المسجلة في اللوح المحفوظ، ولا سقمها يقصرها عنها طرفة عين، ولأن «الكلمة» قد تجرح وتصيب في مقتل بأكثر مما قد تفعل السنان الحادة في بعض الأحيان، قال أمير الشعراء أحمد شوقي منبهًا لذلك:

إن الحقائق قاسية فاستعيروا لها خفة البيان

أي استعيروا لها رقة الكلمات.. والرحمة الإنسانية والتلطف في الخبر بدلا من قسوته ومصادمته للمشاعر. وفي كل الأحوال فما من طبيب على وجه الأرض قادر على أن يزيد من عمر أحد ساعة واحدة أو ينقصه عن أجله المقدور شيئا.. فلماذا هذه «العنجهية العلمية» لدى البعض أحيانا، ولماذا يكاد بعض هؤلاء القلة من الأطباء يعاملون المرضى، وكأن مرضهم جرم شخصي لهم «أرتكبوه» عن إرادة واختيار، فلا يترفقون بهم وهم يتحدثون إليهم عن أمراضهم أو يتحدثون إليهم، كما يفعل المحقق أو القاضي مع الجاني وهو يواجهه بجنايته، دون أن يجد في نفسه ما يدعوه لأن يتجمل معه أو يترفق به.

إنني أحييك ياسيدتي الشابة على إيمانك العميق بربك وتسليمك بأنه كم من سليم معافى، يلقى وجه ربه حين يجيء أجله، وكم من مريض سقيم يطول به العمر إلى

أن تحين ساعته ولقد قال لنا أبو العلاء المعري من قبل مؤكدا هذه الحقيقة البديهية:

كم بُودرتْ غادةٌ كعوبٌ وعمّرت أمها العجوز

يجوز أن تبطئ المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

وإذا كان الطب يأتي بالشفاء بأمر الخالق العظيم في بعض الأحيان، فإن الحب أيضا يصنع المعجزات.. ويزيد من احتمالات الشفاء ويهيئ الظروف المثالية الاسترادد العافية ومقاومة أسباب الهلاك.

ولقد لاحظ الأطباء مرارا أن معدلات الشفاء في الأمراض المستعصية ترتفع لدى من يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويتقبلون أقدارهم برضا تام.. ويتمسكون بروح الأمل والتفاؤل بالشفاء وينعمون في حياتهم بالحب والسعادة والاستقرار العائلي، الذي يزيد من تمسكهم بالحياة ورغبتهم في الشفاء ولا شك في أنك وزوجك الشاب الأمين تنعمان بمثل هذه الظروف الدافعة لتمام الشفاء والتمسك بالحياة وتذوق جمالها، والدفاع عنها ضد أسباب الفناء والدمار دائما بإذن الله.

فهنيئا لك يا سيدتي نظرتك الصحيحة للأمور، واختيارك الموفق لزوجك وحياتك الشخصية وسعادتك.. وشكرا لك على نصيحتك الغالية لكاتب رسالة «قسوة الكلمات» وتمنياتك الطيبة له وللجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأوسمة

ثلاثة أيام فقط هي الباقية من عمرها فعليك الاستعداد لذلك، قالها لي الطبيب الهمام أستاذ المخ والأعصاب بعد أن رأس مجموعة من الأطباء متنوعي التخصصات، قامت بفحص أمي، وهو يدس في يدي روشتة طبية بها أدوية، يرهق ثمنها ميسوري الحال وليس فقط محدود الدخل.

ولم أخف دموعي وأنا أرد عليه بأنه لن يستطيع أن يزيدها نفسا لو أراد إذا هجم القضاء، وكل ما أطلبه لهذه السيدة العظيمة هو أن تلقى من الرعاية ما تستحقه على الأقل كسيدة أفنت من عمرها أكثر من أربعين عاما في مجال التمريض وتخفيف آلام المرضى.

واشتريت لأمي الأدوية المطلوبة وعرجت على مقابر العائلة وتحسست البوابة باكيا وأنا أتطلع لتلك الأيام الثلاثة المقبلة.

فأراد الله بنا خيرا وعاشت أمي بكل حبها وبركة وجودها بيننا أكثر من ألف وأربعمائة يوم بعد تلك الأيام الثلاثة، وأراد لنا الله أن ننعم بفرصة أخرى من الحياة مع أمي، فكانما قد بعثها الله بعد موتها لنهنأ بها، وذلك رغم عذابات المرض والشلل النصفي الذي كان نتيجة خطأ جراحي قبل الحوار المذكور، ووقتها طلب منا أن نسارع بلفها في بطانية وهي في غيبوبتها لنهرب بها في جنح الليل من المستشفى حتى تموت في منزلها، وعندما أبيت قالوا عني إني ابن عاص، وسوف أعرضها للبهدلة والتشريح حين يحم القضاء، وعندما واصلت الرفض وقاومت خروجها على تلك الصورة فتح لي الله جلت قدرته أبوابا ما كنت أدري بوجودها، فضلا عن قدرتي على الوصول إليها.

ومكثت أمي بالإنعاش أكثر من شهرين استردت خلالهما وعيها وقدرتها على الكلام وتناول الطعام، وإن بقي شقها الأيمن في حالة موات، ولم تفلح معه محاولات العلاج بالمستشفى أو المنزل فيما بعد.

وعاشت أمي راضية بقدرها وسعيدة بالتفافنا حولها متفقدة لمن يغيب منا عنها، متزنة في عقلها ووعيها وإدراكها الطيب للأمور، وكانت مستشارنا النفسي والاجتماعي والتربوي في كل ما يلم بنا وملجأنا إذا احتجنا إلى الحنان والعطف ممن يعطى دون مقابل.

ولأنني ابنها الأكبر ولوفاة أبي المبكرة رحمه الله، فقد كنت بالنسبة لها أكثر من ابن، وتغلبنا بالحب على الآلام فكنت أخرج معها للتنزه على شاطئ النيل القريب من منزلها بمصر القديمة حيث أدفعها بمقعدها المتحرك، ونقضي الوقت فرحين منتشين متسامرين، وأعود لأتركها في رعاية شقيقتي المتزوجة معها بالشقة نفسها فتتكفل بأمورها وتنعم بصحبتها، على وعد مني بلقاء في اليوم التالي، ولا يمر يوم دون لقاء ودون قصة جميلة يمكن أن تروى.

وعقب افتتاح مترو أنفاق شبرا ولأن شبرا مسقط رأسها. فقد استضفتها عدة أيام بمنزلي وكانت لنا نزهة جميلة في محطات المترو ذات المصاعد الكهربائية حيث استقللنا المترو، وكنا نصعد في كل محطة ونخرج منها ونتجول بين طرقاتها وشوارعها واستعيد معها ذكرياتها بتلك الأماكن، ثم نعود للمحطة لنستقل القطار إلى المحطة التالية صعودا ونزولا من محطة مسرة إلى كلية الزراعة، ولكن توقفنا في الأخيرة التي أعجبت بها أمي رحمها الله؛ لكونها مرتفعة وفوق معبر حوائطه زجاجية وتظهر أسفله كلية الزراعة بخضرتها الرائعة.

ولقد حباني الله بزوجة محبة رضيت بأن تكون في ترتيب أولوياتي الثالثة بعد أمي وبعد أطفالي الأربعة، وكانت إذا ما وجدت مني تعبا أو مرضا لا تشفق علي، وإنما تدفعني دفعا للذهاب لأمي مذكرة إياي بأن في ذهابي لها الشفاء والنجاة، وأن في تقاعسي عنها الشر والبلاء.

لقد كانت قصة رائعة يا سيدي عشتها مع أمي وحمدا لله مازالت ذكرياتها الجميلة تغلب آلام الشوق وحرقة الفراق، ولقد قلدتني أمي خلالها أرفع وسامين:

الأول حين أفاقت من غرفة الإنعاش وحدثتني عن أن المرضى من حولها والممرضات والأطباء يحسدونها عليّ لفرط اهتمامي بها وشراسة مقاتلتي من أجلها، حين طلب منا الاستسلام لما قدره الأطباء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أما ثاني الأوسمة فهو حين كانت في غيبوبة موتها، التي امتدت ثلاثة أيام فشرعت شقيقتي المقيمة معها تسألني كيف سنتصرف إذا ما نفذ سهم القضاء، فطلبت منها الصمت حتى لا تسمعنا أمي فأشارت أختي إلى حالتها فقلت لها إن أمي معنا تنعم بنا وننعم بها، وأنها تسمعنا ثم توجهت بالكلام إلى أمي طالبا منها أن تكذب هذه الابنة بأن تطبع على خدي قبلة بالرغم مما هي فيه من غيبوبة، واقتربت بوجهي من فمها فإذا بها تضم شفتيها، وتمنحنى الوسام الرائع قبل رحيلها بيوم واحد، وهي في غيبوبة شبه كاملة.

ولقد دفعني لأن أكتب هذه الكلمات إليك ما قرأته في رسالة النظرة الصحيحة التي رفضت كاتبتها تحذير الأطباء من الارتباط بمن أحبته بدعوى أن مرضه سوف يقضى عليه خلال ستة أشهر، فتزوجته على بركة الله وشفاه الله بأمر ربه وطالت عشرتها الجميلة له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

وأنعم بها حقا وصدقا من أوسمة أيها الصديق، فهي ليست أوسمة، وإنما هي بعض مفاتيح الجنة ونعم عقبى الدار، وأية أوسمة أرفع وأنفع للإنسان في دنياه وأخراه من رضا الأبوين، ودعائهما الصادق له بالستر والكرامة والأمان.. وأي حصن أو حجاب يحتمى وراءه المرء من عاديات الأيام أقوى من هذا الحصن

المكين، فهنيئا لك ما نعمت به من صحبة والدتك حين جزم «الجازمون» بأن ليس ثمة حياة، وهنيئا لك رضاؤها عنك وفخرها بك، واطمئنانها بين يديك.. وترقب جوائز السماء السخية لك في الدنيا، مع ما يدخره لك ربك عنده بإذن الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السند المنهار !

هل تتذكرني؟ إنني القارئة الشابة التي تعمل موظفة بإحدى الهيئات وكتبت لك منذ ثلاثة أعوام أن رئيسي المباشر رجل متزوج وله أبناء أصغر مني قليلا، وأنه قد عرض عليّ أن يتزوجني زواجا عرفيا سريا، وراح يغريني بقبوله بدعوى أنه سوف يكون لي سندا في العمل وفي الحياة، وسوف يحميني من أية مشاكل أتعرض لها في عملي، فلما رفضت هذا العرض المهين خاصة أن له سوابق من هذا النوع في دائرة العمل، راح يطاردني ويلح عليّ حتى اضطررت لتهديده بأنني سوف أبلغ زوجته.

وانتهى الأمر بأن علمت زوجته بالفعل بالقصة، ولكن عن غير طريقي، فراح يتوعدني بأنني سوف أدفع ثمن ذلك غاليا، ويكيد لى المكائد في العمل.. ويدبر لي المشاكل حتى تعرضت لمتاعب عديدة، وراح هو في كل مرة يظهر أمامي بريئا من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب، كأنما يقول لي بغير كلام: لقد رفضت «السند» الذي كان يستطيع حمايتك من مثل ذلك، فتحملي إذن ثمن الرفض.. إلخ.

ولقد اختتمت رسالتي إليك وقتها بأن طلبت منك أنت وقراؤك أن ترفعوا أيديكم إلى السماء بالدعاء من أجلي على رئيسي الظالم وعلى كل ظالم جبار يستأسد على الضعفاء، ونشرت رسالتي بعنوان «السند» وقلت لي في ردك مما قلت: ولماذا لانشرك معنا في هذا الدعاء الجماعي رجال الرقابة الإدارية؟.

وأريد الآن أن أبلغك بتطورات قصتي فأقول لك إنه بعد نشر رسالتي اتصلت بي إحدى الجهات الرقابية، في الوقت نفسه الذي تمادى فيه رئيسي المباشر في ظلمه وفي تصيد الأخطاء وتلفيق الجزاءات لي ولغيري، وفي قمة يأسي من العدل في الحياة قررت قبول الزواج من أول شخص مناسب يطرق بابي، بعد أن كان الرفض هو مبدئي السابق، فإذا بالسماء تهديني زوجا رائعا خلقا ودينا وطبعا، فكأنما قد خلق لي من البداية في فهمه لشخصيتي وطباعي، حتى لقد تذكرت قول أحد الصالحين من رفض شيئا في الحرام رزقه الله خيرا منه في الحلال.

وسعدت بحياتي الزوجية وتلمست فيها العزاء عن معاناتي في الوظيفة، وانطويت على نفسي في العمل، فلا أحاول الاحتكاك برئيسي.. ولا أرد على الإيذاء بغير الدفاع عن نفسي، وتجنب أي أخطاء يمكن أن يتصيدها لي، فهل تعرف ماذا فعلت الحياة به؟ لقد سلط الله سبحانه وتعالى عليه إحدى زوجاته السريات السابقات في العمل، وهيأ لها من ساعدها على جمع عدد كبير من المخالفات المالية له، وإن كان بعضها مما يعد في عملنا عاديا، وما كان يطبق عليّ خلال فترة اضطهاده لي من تحقيق وجزاءات طبق عليه، وأحيلت المخالفات الأخرى التي يصعب التجاوز عنها إلى النيابة، وانتهى الأمر بفصله هو وزوجته السرية، ووجدتني أبكي تأثرا بانتقام العادل الجبار سبحانه وتعالى، وتقدمت لرئيس الهيئة بطلب لرفع الجزاءات التي وقعت عليّ ظلما وعدوانا، فقيل نقلا عنه أنه يعلم أن هذه الجزاءات خاطئة، لكنها قد حولت إليه من الشؤوون القانونية مستوفية للشروط، ولقد سقطت

بمضي المدة القانونية، فهتفت بأنها لن تسقط عند الحاكم العادل سبحانه وتعالى، فهل يتعظ الظالمون.. وكل من ينسى الله ويستغل موقعه في إيذاء الغير؟.

لقد استجاب الله لدعاء قرائك الطيبين ونصرني بفضل من عنده... فشكرا لك ولهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يأخذ عليّ البعض أحيانا أنني أدعو دائما إلى ألا يهدر الإنسان طاقته النفسية في محاولة الانتقام ممن أساءوا إليه، وأن يجتهد فقط في الدفاع عن نفسه ورد الأذى عنها، محاذرا أن يبلغ في ذلك حد الانتقام ممن أساء إليه، ويرون في ذلك نوعا من السلبية في المعاملات الإنسانية، قد لا يصلح لمواجهة أعاصير الحياة في هذا الزمان.

غير أنني أؤمن على الجانب الآخر بأن خير وسيلة للانتقام ممن أساءوا إلينا هي ألا نصبح مثلهم، أشخاصا قادرين على إيذاء الغير دون أن يؤرق ذلك ضمائرنا أو يحرمنا من النوم المطمئن..

وتعجبني كلمة المفكر الفرنسي جان جاك روسو، التي يقول فيها: حين أرى الظلم في هذا العالم «أسلي نفسي بالتفكير في أن هناك جهنم تنتظر هؤلاء الظالمين».

وأؤمن كذلك بما قاله أحد الحكماء ذات يوم: «لا تنتقم من خصمك، ولكن أجلس على حافة النهر وانتظر ولسوف ترى جثته طافية فوق الماء بعد قليل، دون أن تلوث يدك بدمه».

وهو موقف ليس سلبيا كما يبدو في ظاهره.. لأنك مطالب حقا بالدفاع عن نفسك ورد الأذى عنها، ثم الترفع بعد ذلك عن الانتقام ممن أساء إليك حرصا على سلامك النفسي.. وتعففا عن الدنايا، والفحش في الخصومة وهو موقف إيماني وعملي أو «برجماتي» في الوقت نفسه، فأما جانب الإيمان فيه فهو يقينك الذي لا يداخله شك في أن في السماء عادلا لا يظلم عنده أحد، ومنتقما جبارا سبحانه وتعالى سوف ينتقم لك ولغيرك من أساء لك بأفضل مما تفعل أنت لو أردت، وثقتك كذلك بأنك حين تردد الآية الكريمة «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» فكأنما قد أعفيت نفسك من عبء الثأر ممن أساء إليك، وفوضت فيه خالقك وهو خير الحاكمين.

وأما الجانب العملي البرجماتي من هذا الموقف، فهو إدراكك أن من ظلمك وافترى عليك، لابد وأنه سوف يكرر إساءته وعدوانه على الآخرين مادامت طبيعته العدوانية قد سمحت له بذلك، ولسوف يوقعه أذاه بالضرورة في شر فيصطدم بمن لا يتعفف عن الانتقام منه وينفذ فيه حكم السماء، ولو كان هو نفسه من الظالمين.. «وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا» صدق الله العظيم.. وقديما قال الإمام مالك بن أنس «قد ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما».

فأية سلبية إذن في هذا الموقف؟! وها أنت يا سيدتي قد انتقم لك الله الذي يملي للظالم ولا يهمله بأفضل مما كنت تستطيعين أنت الثأر منه، لو كنت قد أهدرت طاقتك النفسية والمعنوية في تدبير المكائد له.

فشكرا لك على إطلاعنا على تطورات قصتك هذه، وأرجو أن تتعففي عن التشفي في رئيسك السابق وزوجته السرية بعد انكسارهما؛ لأن التشفى في الغير ضرب من التقصير في أداء واجب الشكر لمن أنصفك في النهاية سبحانه وتعالى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الداء العضال

منذ فترة طويلة وأنا أحاول الاتصال بك دون جدوى.. فأنا أريد أن أتحدث معك حديثا طويلا عن مشاكلي. والحق هو أنني «مجموعة من المشاكل» تمشي على الأرض حتى ليخيل إليّ أنك فيما تنشره في بريد الجمعة تنشر كل حين وجها من وجوه مشاكلي، ولكن في حياة إنسانة أخرى!.

ولأبدأ من البداية فأقول لك إنني سيدة في منتصف العمر أعمل بوظيفة حكومية محترمة.. وقد تزوجت زواجا سعيدا للغاية وأنجبت من زوجي ثلاثة أبناء ذكور، وكانت الحياة تمضي بنا هادئة ووئيدة إلى أن أصيب زوجي الحبيب بداء عضال ستعرف تفاصيله بعد حين!.

فبعد فترة قصيرة من ملاحظتي بعض التغير عليه.. واجهته بما أشعر به من انشغاله عني، وفوجئت به يعترف لي بأنه قد تزوج غيري منذ فترة!.

وذهلت لهذا الاعتراف المفاجئ، وظننته يمزح معي في البداية أو يغيظني، لكنه أكده لي في هدوء.. ولم يكتف بذلك وإنما اعترف أيضا بأن هذه الزيجة السرية ليست الأولى في حياته وإنما هناك زيجتان أخريان سبقتاها ودامت كل منهما عاما أو بعض عام! والزيجات الثلاث بسيدات مطلقات ويكبرنه في السن ولديهن بنات في سن الشباب!.

وأما تبريره العجيب لذلك فهو أنه لم يرزق بنات، ويجب أن تكون له ابنة تبهجه بقولها له يا «بابا»، أما توخيه أن تكون الزوجات في مثل سنه أو أكبر منه سنا فلكي يضمن كما يقول ألا ينجبن منه ويزدن من أعبائه ومشاكله.

حدث ذلك بعد 15 عاما من الزواج السعيد باعترافه هو.. وصدمت صدمة العمر وتكدرت حياتنا، وبدأت من ذلك الحين المشاكل والمصادمات، ومن حين لآخر أعرف منه أنه قد طلق الزوجة التي ارتبط بها.. وترجع حياتنا للانتظام لفترة قصيرة ثم تظهر علامات التغيير من جديد وتبدأ المشاكل والصراعات، ويتكشف الأمر عن زيجة أخرى من مطلقة أو أرملة تكبره في السن ولديها بنات..

وتتكرر الحجة السخيفة عن اشتياقه لسماع كلمة بابا من ابنة حنون لأنه محروم من البنات! وتتحول حياتنا إلى حجيم وتشتعل الخلافات بيني وبينه، وقد يهجر البيت لفترة تطول أو تقصر.. ثم يرجع بالخبر السعيد، وهو أن الزواج قد انتهى بالطلاق والحمد لله وما فات مات، وسوف نبدأ بداية جديدة.. فأصدق في كل مرة وأتقبل عودته للبيت وأحاول بكل ما أملك من قدرة على الصبر والنسيان تجاوز ما حدث ومواصلة الرحلة معه.. فلا تمضي فترة أخرى حتى تتكرر القصة بتفاصيلها وفصولها الممجوجة.. وهكذا حتى بلغ عدد زوجات زوجي خلال عشر سنوات ١٢ زوجة، منهن من تزوجها عرفيا، ومنهن من تزوجها رسميا، ومنهن من كانت عصمتها بيدها، ومنهن من كانت عصمتها بيده هو!.

وبالرغم من عدم تقصيري معه في شيء.. ومع أنه كان قبل أن يصاب بهذا الداء نعم الزوج لي ومثالا للرجل العظيم في بيته، وكان أهلي يحبونه ويحترمونه جدا.. وكنت أدافع عنه دائما ولا أحتمل أن يذكره أحد أمامي بسوء حتى لقد كنت «ألتهم» من يسئ إليه بالقول أو الإشارة من الأهل أو الأقارب، وكنت أقدسه حتى كان بعض أهلي يتندرون على ذلك ويشيرون إليه بقولهم سيدنا فلان رضي الله عنه.. من شدة توقيري له ولا أدري ماذا جرى له.. وكيف تنازل عن وقاره وهو الموظف الكبير، وعن حرصه على زوجته وأبنائه إلى هذا الحد...

لقد أعطيته أكثر من فرصة للبدء من جديد.. وفي المرة الأخيرة لامني أبنائي الثلاثة على قبولي له بعد كل ما حدث.. وتحملت لومهم وقبلت بعودته إلينا وإقامته معنا.. فلم يلبث أن غدر بنا بعد قليل وتزوج من أخرى، حتى قال لى ابني الأكبر «تستاهلي» لأنني قد قبلت بعودته ولم أتعلم شيئا!

والآن يا سيدي فإننا نعيش وحدنا وقد امتنع زوجي عن الإنفاق علينا لأنه مشغول بالطبع بآخر زيجاته.. أو ربما بتبعات بعض زيجاته المتكررة، فاضطررت إلى إقامة دعوى نفقة عليه مازالت منظورة أمام المحكمة منذ 18 شهرا.. وقد كاد لي زوجي في عملي وسرق من مكتبي ورقة رسمية ليثبت إهمالي، وتمت مجازاتي بسبب ذلك. فماذا أفعل يا سيدي، وكيف أحصل على حقي من هذا الزوج الجاحد، وهل تصدق حجته العجيبة في تكرار الزواج بدعوى أنه لم يرزق بنات ويريد أن تكون له «ابنة»!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من طبائع البشر أن يميلوا دائما لتبرير تصرفاتهم التي يعلمون جيدا أنها تتعارض مع الأعراف السائدة، أو تتصادم مع قيم الوفاء والأمانة والالتزام، بدوافع يحاولون بها إضفاء طابع «النبل» أو «الإنسانية» أو «الضرورة» التي لم يكن منها مفر على هذه التصرفات، وهي حيلة نفسية دفاعية معروفة لدى علماء النفس، فمن تنحرف عن الطريق القويم تحاول إقناع نفسها والآخرين بأنها لم تنزلق إلى الانحراف باختيارها الحر، وإنما لدوافع قهرية لم تدع لها سبيلا آخر للاختيار، أو بأنها كانت ضحية لحسن نيتها وسذاجتها وثقتها العمياء في أمانة الآخرين، ومن يغدر بمن يحبه يحاول أن يتلمس لنفسه الأعذار لهذا الغدر في تصرفات الطرف الآخر، وقد يصل به خداع النفس إلى ما يشبه «الاقتناع» بأنه هو الذي دفعه دفعا إلى هذا الغدر به بتقصيره معه أو بسوء إدراكه للأمور... إلخ.

والأسوياء الأمناء فقط هم الذين لا يحاولون إلقاء تبعة تصرفاتهم غير المبررة على الآخرين، ولا يستسلمون نفسيا لنزعة «لوم الضحية« بدلا من لوم الجاني التي تسود بعض المعاملات الإنسانية أحيانا.

غير أن واجب الأمانة يقتضي مني أن أعترف لزوجك هنا بفضل الابتكار والتجديد في اختيار الدافع النفسي المزعوم، الذي يبرر به غدره المتكرر بك وزيجاته

السرية المتوالية! فالحق أنه مبتكر وجديد ومن الإنصاف أن يصك باسمه في موسوعة علم النفس، ذلك أن هناك أكثر من وسيلة مشروعة لإشباع الاحتياج النفسي؛ لأن يمارس الإنسان إذا كان في حاجة إلى ذلك حقا، إحساس الأبوة تجاه ابنة ليست من صلبه، بغير حاجة للزواج بمطلقة ذات بنات، وأبسط هذه الوسائل هي أن يحنو على بنات إخوته أو شقيقاته ويقربهن منه ويهتم بأمرهن، أو يصطفي منهن من يخصها برعايته واهتمامه، فيشبع هذا الاحتياج لديه بغير حاجة لأن يتعس زوجته بالزواج عليها ١٢ مرة متتالية!.

وأوضح دليل على أن زوجك كان ينشد الزواج لأسباب لا علاقة لها بهذا الاحتياج النفسي، هو أن زيجة واحدة له لم تدم أكثر من عام أو بعض عام، فأين إذن الارتباط النفسي المزعوم بينه وبين بنات أولى الزوجات، ولماذا لم يستمر أو يدم، ولماذا انقطع هذا الارتباط بعد بضعة شهور قليلة مع بنات الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة... إلخ.

أغلب الظن أنه قد بدأ «سياحته» في عالم الزواج السري مخادعا نفسه بهذا المبرر، فلم يكن وحده كافيا من وجهة نظر الزوجة السرية لإنجاح أي زيجة أو استمرارها، ومعها كل الحق في ذلك إذ ماذا يدعوها للتمسك بزوج لا يقوم بالإنفاق عليها.. ولا يتحمل مسؤوليات الزواج الاجتماعية والمادية والنفسية، وكل ذلك بدعوى أنه يريد أن يشجي أذنيه بسماع كلمة «بابا» من ابنتها؟ لهذا ينهار الزواج سريعا كما بدأ متعجلا.

ولا عجب في ذلك لأن ما بني على أساس واهن لا يصمد للرياح طويلا، فإن كان ثمة سؤال يفرض نفسه في هذه القصة العجيبة فهو: أين يجد كل هؤلاء المطلقات والأرامل ممن يماثلنه في السن أو يكبرنه قليلا، ولديهن بنات في سن الشباب ويقبلن بالزواج المتعجل من زوج وأب لثلاثة من الأبناء الذكور دون روية أو تعقل؟!

يا سيدتي إن الثمرة إذا انتشر فيها العفن لا تجدي معها أية محاولات لعلاجها وتخليصها مما أصابها من الفساد..، وخير ما نفعل معها هو أن نلقى بها جانبا ونحذر الغير من تناولها لكيلا تصيبهم بأذى، وأحسب أن هذا هو الموقف الآن بينك وبين زوجك، فلماذا لا تتوصلان معا إلى حل ودى كريم لزواجكما المعلق بغير الدخول في منازعات قضائية.. ولماذا لا يكرمك هو بالانفصال الهادئ مع تحمله لمسؤوليته المادية عن أبنائه، وأداء حقوقك إليك بلا مراوغة ولا نزاع.. أو يعترف لنفسه بالحقيقة ويقبل بالعلاج النفسي لفترة قصيرة لإنقاذه من داء الزواج السري المتكرر وخداع النفس بزعم الحاجة إلى ممارسة إحساس الأبوة لابنة لم ينجبها، فيبرأ الداء.. ويكتفي بسماع كلمة «بابا» من أبنائه الثلاثة بدلا من استجدائها من بنات الغير؟!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقاء الغرباء!

أنا سيدة نشأت في أسرة بسيطة مكونة من سبعة أفراد.. وكان أبي- يرحمه الله - رجلا فاضلا فأنشاني على الاستقامة والتدين، وألحقني في طفولتي بمدرسة دينية، أنهيت سنواتها والتحقت بعدها بمعهد أزهري.

وكنا نقيم بمنزل يقوم صاحبه بتأجير إحدى شققه للعزاب من العرب والمصريين.. فكأن أبي على خلاف دائم مع صاحب البيت بسبب تأجير هذه الشقة للعزاب، وما ينتج عن ذلك من بعض التصرفات غير الأخلاقية. ولولا الظروف المادية وتعذر الحصول على مسكن بديل بتكلفة محتملة، لانتقل أبي بأسرته من هذا البيت إلى مكان آخر..

وذات يوم خلت تلك الشقة من سكانها.. وشهدنا شابا بها فازدادت مخاوف أبي من المشاكل بسبب هذا الشاب الأجنبي، غير أن الأيام مضت بغير أن يلحظ أبي عليه أي تصرف مخجل كتصرفات سابقيه في السكن بهذا الشقة، وعلى العكس ذلك، فلقد رآه حريصا على أداء الفروض في أوقاتها بالمسجد وحريصا أيضا على صلاة الفجر، كما أنه يغض بصره خلال سيره في الطريق فلا يتطلع إلى البنات والنساء ولا يقتحمهن بنظرات فاجرة كما كان يفعل غيره، وشيئا فشيئا بدأ أبي يطمئن إلى أخلاقيات هذا الشاب الأسمر.. وراح يشيد به وبالتزامه الديني والخلقي إلى أن كان عائدا ذات يوم إلى البيت فوجد هذا الشاب واقفا أمام السلم وهو في حالة سيئة ولا يقوى على الصعود إلى شقته.. فأعانه أبي على صعود السلم، وأدخله شقته وطمأنه إلى أنه سوف يستدعي له - طبيبا لعلاجه.. وتركه في مسكنه ورجع بعد قليل مع أحد الأطباء الذي قام بإسعافه وكتب له العلاج.

ورعاه أبي خلال فترة مرضه وأصبح صديقا له، وعرف عنه أنه يدرس بإحدى كليات الأزهر، وجاء من بلده الأفريقي ليتفقه في الدين ويصبح عالما فيه كأبيه الشيخ الكبير، وراح أبي يتحدث عن أدب هذا الشاب وتدينه وكرم أخلاقه فلفت نظري إليه كفتاة، وبدأت أنشغل بالتفكير فيه، وحاولت بالفعل جذب انتباهه إليّ، ولكن دون جدوى، فقد كان الفتى متحفظا ولا يكاد يرفع عينيه في وجهي إذا التقيت به.

وبعد فترة ليست قصيرة فوجئت بأبي يبلغني بأن هذا الشاب يريد أن يرتبط بي.. ولم تسعني الفرحة حين عرفت ذلك من أبي.. ولم أحاول إخفاء سعادتي بالخبر.. وشجعني على ذلك أنني وجدت أبي كذلك سعيدا بهذا الرغبة ومتحمسا للاستجابة لها، وعرض أبي الأمر على الأسرة فاعترض عمي بحجة أنه أجنبي، وسوف يعرضني زواجي منه إلى مشاكل عديدة في المستقبل، غير أن أبي طمأنه إلى حسن أخلاق هذا الشاب وصدقه وتدينه.. وإلى أنه ينوي الاستقرار في مصر نهائيا، ومواصلة دراساته العليا ليصبح عالما من علماء الأزهر.

وتزوجت هذا الشاب الأفريقي وعشت معه أسعد أيام عمري، ورزقت منه بولدين وعاملني زوجي بلطف شديد واحترام كبير واشترى شقة تمليك كتبها باسمي

وعشنا حياة كريمة بما كان يرسله له أبوه الشيخ الكبير من بلده، لينفق على حياته بمصر.

لكن السعادة لم تطل كثيرا للأسف، فلقد مرض زوجي الحبيب بمرض خطير بعد عدة سنوات، وأنفق الكثير على علاجه ولم تتحسن حالته للأسف، وإنما ازدادت تدهورا.. وأبلغني ذات يوم أنه قرر السفر إلى بلده؛ لكي يأتي بمبلغ كبير من المال من أبيه ليواصل علاجه.. وجاء موعد السفر، فاحتضن ولديه وانخرط في بكاء مرير وراح يوصيني بهما بشدة، فانخرطت أنا أيضا في البكاء واحتضنته وطمأنته على نفسه وولديه، ودعوت له بالعودة سالما من بلده لكي يربي ولديه.. وينشآ في رعايته.. وسافرمودعا مني بأحر الدعاء والأمنيات الطيبة.. فلم يمض على سفره سوى ايام وتلقيت من أبيه اتصالا يبلغني فيه وفاة زوجي، ويعزيني فيه ويعرض عليّ الحضور إلى بلده مع أولادي للعيش فيه في كفالته ورعايته.. وصدمت صدمة هائلة.. وبكيت حتى جفت دموعي..

وعرفت أن زوجي لم يسافر في الحقيقة لكي يحضر مالا من أبيه للعلاج، وإنما لكي يراه ويرى أمه قبل الرحيل، وبعد أن حدثه الأطباء عن خطورة حالته، ومن بين دموعي اعتذرت لوالد زوجي عن عدم استطاعتي العيش خارج بلدي، وتقبل الشيخ الطيب الموقف.. وتعهد بأن يرسل نفقات الأبناء كل شهر.. ووفى بوعده وكان كريما معنا إلى أن توفاه الله بعد ابنه بعدة سنوات، فانقطع موردي.. وتولى أبي الإنفاق على أسرتي الصغيرة إلى أن حانت ساعة رحيله هو الآخر عن الدنيا، وشعرت بحزن الدنيا كلها عليه، وقد كان سندي الوحيد في الحياة بعد الله سبحانه وتعالى..

ولم أجد من بعده من يساعدني في تربية أبنائي، فاضطررت للخروج للعمل لأول مرة في حياتي.. وواجهت مشاكل عديدة وإغراءات أكثر، لكني صمدت لها بقوة إيماني وبذكرى الأيام السعيدة التي عشتها مع زوجي الطيب، ومضت الأيام بخيرها وشرها، وواصل الولدان دراستهما بصعوبة شديدة بسبب اعتبارهما أجنبيين، وما ترتب على ذلك من دفع رسوم باهظة إلى أن تخرج الابن الأكبر، وحاول أن يجد لنفسه أى فرصة عمل لكي يخفف عني بعض العبء.. فاصطدم بمشاكل كثيرة بسبب جنسيته، ولم يستطع العمل في أية جهة حكومية لأنه في نظر القانون أجنبي تبعا لأبيه.

واشتد عليّ المرض.. فلم يطق ابني الأكبر أن يجلس عاطلا بلا عمل وأنا أعاني المرض وأكافح لإعالته، فقرر السفر إلى بلد أبيه ليعمل هناك ويساعدني بما يستطيع إرساله إلى من نفقات، وسافر بالفعل وتمزق قلبي وأنا أراه يواجه المجهول لكي يساعد نفسه، وراح يكتب لي بأخباره كل شهر، ثم اضطربت الأحوال السياسية في هذا البلد ونشبت فيها حرب أهلية أتت على الأخضر واليابس، فانقطعت عني أخباره لفترة طويلة انخلع خلالها قلبي عليه..

ومازلت أنا وابني الآخر نواصل حياتنا في مصر، ونفتقد ابني الأكبر الذي اضطره قانون الجنسية للافتراق عنا.

وسؤالي لك الآن يا سيدى هو ماذا يضير هذا القانون في أن يحصل أبناء الأم المصرية على جنسيتها، خاصة بعد وفاة أبيهم الأجنبي؛ لكي تتيسر لهم سبل العمل والحياة في بلدهم الذي لم يعرفوا غيره؟ أليس ذلك من حق هذه الأم.. ومن حق أبنائها.. أم ترى أنه سيظل محكوما على من هن في ظروفي نفسها أن يعانين هذه المعاناة المرة بسبب زواجهن ذات يوم بعيد من غير أبناء بلدهن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

في التراث الشعبي العربي كلمة تقول: لا تقع في حب الغرباء فإنهم دوما على رحيل. وتحذر هذه الحكمة من استسهال الارتباط العاطفي، ومن ثم الزواج من الغرباء الذين لا تضرب جذورهم في الأرض التي نقف عليها.. وقد لا تستقر سفنهم في موانينا طويلا حتى نفاجأ ذات يوم بهم وقد استجابوا لنداء الرحيل.. ورفعوا مراسيهم من الماء، وأبحروا بسفنهم بعيدا عنا مخلفين وراءهم اللوعة.. والندم والتبعات الجِسَام.

وفي المأثور الشعبي في الغرب حكمة شبيهة تقال في الظروف المماثلة هي: متعه الحب لحظة.. شجن الحب يدوم إلى الأبد، وتهدف هذه الحكمة إلى التذكير بما قد يترتب على متعة الحب العابرة من نتائج وتبعات، لاتزول بعد انقضاء الحب أو انطواء صفحته، وإنما تدوم إلى الأبد.. وتصاحبنا في الحياة بقية العمر كالأبناء الحيارى الذين يجيئون إلى الدنيا ثمرة لزواج بين أبوين مختلفين دارا وتراثا وأعرافا وتقاليد.. وربما أيضا في العقيدة الدينية فيدفعون ضريبة هذا الاختلاف فيما بعد، ويواجهون متاعب جمة في الحياة، دون سند من قوانين بلادهم الأم التي لم يعرفوا غيرها بالرغم مما يحملون من جنسيات مختلفة.

والخلاصة هي أن من يتخذون مثل هذا القرار المصيري بالزواج من الغرباء لابد لهم أن يعوا جيدا تبعات هذا الارتباط، وهم يستجيبون لنداء العاطفة.

فمن يدرك عواقب الأمور قبل الإقدام عليها يكون أقدر على مواجهتها حين تظهر في أرض الواقع.. ممن أعمته العاطفة الهوجاء عن كل شيء، فلم يتحسب للنتائج ولم ينشغل بغير تحقيق رغائبه الوقتية.. «والمعرفة التامة النافية للجهالة».. على حد التعبير القانوني الشائع.. تفقد الإنسان حجية الشكوى من ثقل التبعات أو الزعم بعدم إدراكه لها من البداية. ولقد تؤدي إلى التأثير على قراره وترجيح الحذر على التسرع.. والتروي أو النكوص على الاندفاع العاطفي والتهور.

والمشكلة التي تثيرها رسالتك مشكلة حقيقية وجادة، ويعاني منها عدد كبير بالفعل من الأبناء الحيارى من ثمار هذا الزواج المختلط ومن واجب الإنصاف أن نقول إنهم لا ذنب لهم في اختيارات آبائهم وأمهاتهم لشركاء الحياة، ولا في اختلاف قوانين الجنسية بين البلاد فيحرمون هم من حق المواطنة الكاملة في بلادهم، التي لم يعرفوا غيرها، في حين يحصل نظراؤهم في معظم دول العالم

المتقدم على حقوق الجنسية تبعا لأمهاتهم، ويواجهون الحياة بقدرات وإمكانات أفضل، ولقد أريقت في هذه المشكلة أنهار من أحبار الصحف.

وسمعنا عن قانون تم إعداده لمنح أبناء الأمهات المصريات جنسية بلادهن، ولكنه لم يصدر بعد، ونأمل في أن يرى النور في الدورة المقبلة لمجلس الشعب.

أما زوجك الراحل الذي أحسن عشرتك وعاملك بود واحترام كبيرين، فلم تطل للأسف رحلته في الحياة كثيرا فلقد ذكرني قراره بالعودة إلى بلده ليستقر في أرضه بعيدا عنكم استعدادا للنهاية الوشيكة، بتقليد من تقاليد بعض قبائل الهنود الحمر، حين كان من يستشعر منهم قرب النهاية ينأى بنفسه عن الأهل والأحباء.. ويصعد على قمة جبل بعيد فيرقد على الأرض ليستقبل النهاية المحتومة مستسلما لأقداره.. وعازفا عن أن يكبد أعزاءه أحزان الرحيل، فليرحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم إليك، وما التزم به خلال رحلة حياته القصيرة من قيم ومثاليات..، ولنأمل خيرا في صدور القانون الجديد، لكي يقدم الحل العادل لمشكلة أبنائك وأبناء من هن في مثل ظروفك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوجه الحزين!

أبدأ رسالتي إليك بتحية الصديق لصديقه، ذلك أنني أعتبر نفسي صديقا لك بالرغم من أني لم ألتق بك من قبل، ولم تتعد علاقتي بك متابعتي لبابك الجميل منذ سنوات عديدة، فكم شعرت في مواقف سابقة بالرغبة في الكتابة إليك، وكم عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

إلى أن جاءت اللحظة المناسبة، ورأيت أن أكتب لك بتجربتى عسى أن يستفيد بها قراؤك خاصة من الشباب..

ولابدأ فأقول لك إنني شاب في الأربعين من عمري، كنت أعيش في كنف أبي، وأمثل بالنسبة له خيبة الأمل الكبرى في حياته - رحمه الله - فلقد كنت أكبر أخوتي وهم ثلاث شقيقات وأخ واحد، وكان أبي موظفا كبيرا بإحدى الهيئات العامة ورجلا طيبا وتقيا ويضع كل آماله فيّ وفي إخوتي، ويركز جهده الأكبر عليّ بالذات لإيمانه بأن الابن الأكبر إذا حسنت تربيته واستقام أمره، فإن إخوته الأصغر منه سوف يقتدون به ويمضون على طريقه.. ولهذا اشتد عليّ أبي بعض الشيء لكي أتفوق دراسيا وأصبح مثلا أعلى لإخوتي، كما اشتد عليّ في تقويمي ومراقبتي ليضمن حسن سلوكي، فاستجبت لما طلبه مني في بعض الأحيان.. وسخطت عليه في أحيان أخرى، إلى أن بلغت مرحلة الثانوية العامة، وبذل معي أبي كل ما يملك من جهد لكي أتفوق وأحصل على مجموع، يؤهلني للالتحاق بإحدى كليات القمة.

لكني خيبت أمله للأسف، وتمردت على القيود التي فرضها عليّ واختلست نقود الدروس الخصوصية، التي ائتمنني عليها لتسليمها للمدرس.. وأنفقتها في شراء السجائر والملابس واللهو مع الأصدقاء، وانفضح أمري حين شكا له المدرس ذات يوم من انقطاعي عن الدرس، وواجهنى أبي بما عرفه.. ولم يقل لي سوى إنه حزين لأن يكون هذا هو سلوكي، وأنا الأخ الأكبر لأخوتي الذي سيرعاهم من بعده.. فكيف يطمئن قلبه إلى مصيرهم و«الراعي المنتظر» فاسد على هذا النحو؟!.

وشعرت بالخجل من نفسي بعض الوقت.. لكني لم أعدل عن سلوكي بالرغم من ذلك، وأهدرت الوقت الثمين في العبث واللهو وتدخين السجائر ومطاردة الفتيات.

وكانت النتيجة أن نجحت بمجموع ضعيف، لم يؤهلني إلا للالتحاق منتسبا بكلية نظرية.. واستسلم أبي للحزن وقتا طويلا واعتزلني لفترة لم يوجه إليّ خلالها حديثا ولا كلاما، وراح يردد أمامي كلما رآني: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وبدلا من أن أشعر بعمق أحزانه وخيبة أمله فيّ.. اعتبرت ذلك تعرضا بي... وازددت سخطا وتمردا واستهتارا، ورسبت في السنة الأولى بكليتي النظرية بالرغم من تفرغي الكامل للدراسة، ولم يعد يؤثر فيّ وجه أبي الحزين ولا دموعه وهو يصلي ويحتسب واستسلمت تماما لنداء السخط. وأصبحت عبئا على أمي وأبي في مصاريفي، فأنا في حاجة دائمة للنقود لشراء السجائر والسهر مع الأصدقاء

ومطاردة الفتيات وتناول المحرمات وشراء الملابس التي لا تحتملها ميزانية أبي، فإذا لم أجد مع أمي ما أريد ثرت وهددت.. فتقترض لي وتعطيني، وإن فشلت طلبت من إخوتي قروشهم القليلة بدعوى اقتراضها منهم. ثم لا أسددها بالطبع.. وعلى ذلك فقد استمروا في الاستجابة لي، وحرموا أنفسهم من معظم مصروفهم من أجلي؛ طلبا للسلام معي وخوفا من الفضائح.

وفي عامي الجامعي الثاني، سعى أبي في إيجاد عمل لي بالثانوية العامة وألحقني بوظيفة مؤقتة في أحد فروع الهيئة التي يعمل بها.. قائلا لأمي إن كثيرين من الطلبة المنتسبين يعملون، دون أن يؤثر ذلك على تفوقهم.. ورحبت بالعمل لكي أجد موردا إضافيا لي.. لكن سلوكي في العمل لم يكن أفضل منه في الدراسة.. فلقد واصلت الاستهتار والغياب وافتعال الأعذار المرضية، والتأخر عن موعد العمل في الصباح بتأثير السهر إلى الفجر، حتى هددني رئيسي المباشر بالفصل أكثر من مرة وتعجب لبعد الشقة بيني وبين أبي الرجل الطيب الملتزم الكفء في عمله، فكنت أواظب بعض الفترات وأرجع للتمارض والادعاء في فترات أخرى، ولولا تقدير رئيسي لظروف أبي أو «لمصيبته» في على حد تعبيره لما أبقاني في العمل يوما واحدا.

وعلى هذا الحال مضت بي الأيام، ونجحت في الصف الأول الجامعي من السنة الثانية، ورسبت في الصف الثاني مرة أخرى ونجحت في العام التالي، في حين واصل إخوتي دراستهم بنجاح..

وفي الصف الثالث الجامعي رجع أبي من عمله مرهقا وحزينا كعادته في الفترة السابقة، فصلى العصر.. ثم صعدت روحه إلى السماء رحمه الله، وهو جالس على السجادة يسبح ربه ويشكو إليه همه بأكبر أبنائه، وتزلزلت حياة الأسرة زلزالا عنيفا.. وتزلزل كياني كله، وشعرت بأن سكينا حادة قد مزقت أحشائي.. ووقفت في السرادق أتلقى العزاء في أبي، وأنا غائب الذهن عن الجميع وصورة وجهه الحزين تلاحقني.. وتقتلني بالندم والأسف والحزن.. ووسط زحام المعزين كنت أسأل نفسي، وأنا أكاد انفطر من الأسى: لماذا لم أسعد أيامه في السنوات الأخيرة؟ وماذا جناه لكي يلقي مني السخط والتمرد، وهو الرجل الطيب المكافح الذي كان يحرم نفسه ليعطي أبناءه؟ ولماذا لم أعتذر له وأقبل يده وقدمه وأرجو صفحه وعفوه.. ولماذا.. ولماذا.. ولماذا.. حتى كاد رأسي ينفجر..

وأنتهت أيام العزاء وخلا البيت عليّ وعلى أمي وأخوتي وسألتني أمي ماذا سنفعل في «حملنا» الثقيل ولم يعد لنا سوى معاش أبيك، وقد انقطع رزقه من العمل الخارجي بعد الظهر؟.

فأنفجرت في البكاء طويلا وحين تمالكت نفسي، قلت لها إنني قد «أحزنته» كثيرا يرحمه الله. وإن في عنقي دينا له واجب السداد.. ولسوف أسدده برعايتك ورعاية إخوتي ولسوف أعمل ليل نهار لتوفير متطلباتكم بعد أن انقضى عهد الاستهتار، وكل ما أرجوه هو أن يسامحني ويصفح عني، وأن تسامحوني جميعا وتصفحوا عني وبكت أمي وكل أخوتي.. وتعاهدنا جميعا على أن نضع أيدينا في أيدي بعضنا

البعض؛ لاستكمال رسالة أبي وإسعاده وهو في العالم الآخر.. وبالرغم من تشكك أمي الصامت في إمكان التزامي بما وعدت، فلقد أدركت تماما أنني لن أخذلها ولن أخذل أخوتي الصغار بعد الآن، وبدأت مرحلة جديدة من حياتي بمقاطعة شلة العبث والاستهتار والجري وراء الفتيات والسهر حتى الفجر، وامتنعت نهائيا عن تناول المحرمات وشراء علب السجائر المستوردة.. وإذا كنت قد عجزت عن التوقف دفعة واحدة عن التدخين.. فلقد خفضت استهلاكي منها إلى الثلث. ومع ذلك كان يراودني الإحساس بالندم وأنا أدخنها وأشعر بأن أخوتي أحق بثمنها مني، والتزمت في عملي مواعيد الحضور والانصراف، وأصبحت أكثر جدية وإنتاجا فيه، فبدأ رئيسي المباشر يعطيني الحوافز لأول مرة منذ عملي معه.. بل وأصبح يفتعل الأسباب لكي يعطيني ساعات عمل إضافية أتلقى عنها أجرا مناسبا.

وأهم من كل ذلك أنني أصبحت أحرص على العودة إلى البيت في الظهر كل يوم، وهو ما لم أكن أفعله من قبل. ولا يهدأ لي جانب إلا إذا أطمأننت على عودة كل إخوتي من مدارسهم. ليتناولوا معي ومع أمي طعام الغداء.. ويبدأوا مذاكرتهم في أمان..

وقد اهتزت مشاعري ذات يوم، حين جاءت إلى أختي التي تليني في السن وكانت وقتها طالبة بالسنة الثانية الثانوية؛ لتستأذنني في الخروج لمدة ساعة للذهاب إلى بيت إحدى صديقاتها لإحضار شيء من عندها، وعلمت منها أنها استأذنت أمها فطلبت منها أن تأخذ إذنها منى ابتداء من الآن؛ لأني قد أصبحت رجل البيت، المسؤول عن الأسرة.. فخفق قلبي.. وكاد الدمع يطفر من عيني، وقبلت أختي في جبينها وقلت لها: اذهبى مصحوبة بالسلامة.

ورنت عبارة «رجل البيت» رنينا قويا في سمعي حتى شعرت بالخوف والرهبة والمسؤولية، واستدعيت صورة أبي في مخيلتي.. وقلت له في خيالي: هل سأنجح في تحمل مسؤوليتك بعدك يا أبي؟.

ولم تكتف أمي بذلك، وإنما وضعت بين يدي في أول الشهر معاش أبي وطلبت مني الإنفاق على الأسرة، فجلست معها لتدبير شؤون البيت وأضفت إلى المبلغ مرتبي البسيط، دون أن أخصم منه إلا أجر المواصلات وثلاثة جنيهات فقط لي كمصروف شخصي.. واستدعيت إخوتي وأعطيت كلا منهم مصروفه وأعطيت أمي مصروف المطبخ وسددت إيجار الشقة. وفاتورة الكهرباء.

وشعرت بحجم العبء الكبير، الذي كان يتحمله أبي صامتا ودون شكوى طوال حياتنا.

وعلى هذا النحو مضت حياتنا في العام الأول من رحيل أبي.. ومن عجب أنني وسط هذه المسؤوليات والمشاغل قد وجدت الوقت الكافي لاستذكار دروسي، ونجحت في امتحان الصف الثالث الجامعي في أول مرة.. وسعدت كثيرا بنجاح كل إخوتي في صفوفهم الدراسية.. كما أصبحت أقضي معظم وقتي في البيت، ما لم يكن عندي عمل مسائي وأتابع دراسة أخوتي وأتحدث معهم.. وأحل مشاكلهم.. وألبي طلباتهم، وعرفت لأول مرة عبء دخول المدارس وطلبات الإخوة من

الملابس والأحذية والحقائب والكراريس.. وعبء العلاج إذا مرض أجدهم.. وعبء الديون للبقال والجزار إلخ.

وأمضيت شهورا أروح إلى عملي وأجيء منه، وليس في جيبي سوى قروش المواصلات.. وبعد فترة أصبحت ملابسي قديمة.. ومع ذلك فقد رفضت شراء الجديد منها؛ لكي أستطيع المحافظة على مظهر إخوتي.. وأصبح حذائي بالياً دون أن أفكر في شراء غيره ومع ذلك فأنا راض عن نفسي وأسير مرتاح الضمير، وهو إحساس لم أكن أشعر به وأنا أضع في جيب قميصي الفاخر علبة السجائر الأمريكية والولاعة وارتدي بنطلونا وقميصا غاليين، وأجلس مع أصدقاء زمان في أحد الأماكن الراقية أو أذهب إلى موعد مع فتاة.

وتخرجت في كليتي بتقدير جيد.. وقبل أن أطلب ذلك كان رئيسي المباشر قد قام بكتابة طلب لتعييني بشهادتي في الهيئة، ورفع مرتبي بعد أن أصبحت ذراعه اليمنى في العمل وأحب موظفيه إليه.. وتم التعيين، ولم تكن فرحتي به أكبر من فرحتي بالتحاق أختي بالكلية التي رغبت في الالتحاق بها، ولا من فرحتي بتقدم بقية الإخوة في دراستهم بنجاح كبير.

والعجيب هو أنني وأنا من كنت أكره الدراسة وأضيق بإلحاح أبي عليّ للاستذكار والتفوق، قد وجدت نفسي أكرر مع إخوتي كلماته نفسها دون أن أدري.

وتدمع عيني حين أتذكره، وهو يكاد يقبل يدي لكي أستذكر دروسي لمصلحتي الشخصية، وليس لمصلحة أحد غيري.

ولقد هاجمتني صورته وهو يستجديني الاستذكار، وأنا أصلي العصر ذات يوم فقرأت الفاتحة على روحه، وإذا بي تلمع في ذهني فكرة جديدة هي.. ولماذا لا أحقق له أمله الخائب في بعد رحيله عن الحياة؟ ونهضت من جلستي، وقد عقدت العزم على الالتحاق بالدراسات العليا في كليتي، ونفذت ذلك بالفعل ونجحت في السنة التمهيدية بلا مشاكل. ثم شغلت بإعداد رسالة الماجستير فاستغرقت في ذلك بضع سنوات؛ بسبب انشغالي بعملي وأسرتي والعمل الإضافي لتحقيق مزيد من الدخل.. ثم أيضا بخطبة أختي لأحد خريجي كليتها.. ومع ذلك فلقد انتهيت من الرسالة آخر الأمر وطبعتها وصدرت أولى صفحاتها بهذا الإهداء: «إلى الرجل الذي لولا فضله عليّ حيا وميا لما نجحت في إنهاء هذه الرسالة... إلى أبي العظيم الأستاذ فلان الفلاني رحمه الله وأحسن جزاءه» وكان يوم مناقشة الرسالة يوما مشهودا في حياتي وحياة أسرتي، وزغردت أمي لأول مرة، بعد رحيل أبي في قاعة المحاضرات، وهي تسمع قرار لجنة المناقشة بمنحي درجة الماجستير بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف.

ولست أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك.. لكني سأقول لك فقط أني خلال ١٨ عاما من رحيل أبي عن الحياة، قد وفقني الله العلي القدير في رد بعض دينه لي، واستكمال رسالته فتخرج كل إخوتي وعملوا حتى الصغير، الذي كان عمره يوم وفاة أبي أربعة أعوام قد تخرج وتزوجت شقيقاتي الثلاث زيجات سعيدة، وأصبح لي ثلاثة إخوة جدد هم أزواجهن.. وقد أعانني ربي على سترهن جميعا.. بجمعيات

الادخار من مرتباتهن ومرتبي ودخلي الإضافي، ومن عائد عمل عامين في الخارج، انتدبت خلالهما في أحد مكاتب الهيئة الخارجية التي أعمل بها، ولولا المسؤولية العائلية التي أتحملها لما رشحني رؤوسائي لهذا الانتداب، كما عمل آخر العنقود أخي الأصغر الحبيب، الذي أشعر بأنه ابني وليس أخي في إحدى الدول العربية عن طريق أحد المعارف منذ حوالي العام، وفوجئت به يرسل إليّ بعد بضعة شهور من سفره مبلغا بالآلاف لكي أستعين به كما قال عليّ إنهاء رسالتي للدكتوراه؛ لأنني قد حصلت على إجازة دراسية لإنهائها وقل دخلي، فاقتطعت لنفسي ربع المبلغ، الذي أرسله وأودعت الباقي باسمه في البنك ونبهت عليه بحزم بألا يرسل نقودا أخرى؛ لأنه أحق بها ويحتاج إلى شقة وتكاليف للزواج حين يجئ الأوان.

ولقد أصبح بيتنا الأن يموج بأخواتي البنات وأطفالهن الرضع والصغار وأزواجهن يوم الجمعة كل أسبوع.. وتتصدر الجلسة أمي الحبيبة المكافحة، وأشعر أنا بأن هذا اليوم هو أسعد أيام الأسبوع.

وأما الدافع الذي دفعني لكتابة هذه الرسالة إليك فهو خبران سعيدان والحمد لله.. الأول هو أن الله قد وفقني إلى الارتباط بفتاة ممتازة، تصغرني بعشر سنوات بعد أن ظلت أمي تلح عليّ في الزواج قبل أن يسرقني العمر، فجاء النصيب مع هذه الفتاة الطيبة المتدينة وهي زميلة لي في الهيئة نفسها، وتم عقد قراني عليها.. وسيتم الزفاف في نوفمبر المقبل بإذن الله. وأما الخبر الثاني فهو أنه قد تحددت جلسة لمناقشة رسالتي للدكتوراه في أكتوبر المقبل وأستاذي المشرف على الرسالة يثني على جهدي فيها ويبشرني بالفوز القريب، وقد اتصل بي ابني أو أخي الأصغر، مؤكدا لي أنه سيكون في القاهرة قبل الموعد لكي يحضر مناقشة الرسالة.. ولقد أهديتها لأبي أيضا وأضفت إليه هذه المرة «أمي العظيمة وإخوتي الأحباء وخطيبتي الفاضلة وأزواج الشقيقات وأبناءهم»، وقلت في الإهداء إنهم الأقمار التي تضيء حياتي.

ولقد فكرت أن أنتظر إلى ما بعد مناقشة الرسالة والحصول على الدرجة؛ لكي أكتب لك قصة تحولي من شاب مستهتر وطالب فاشل.. إلى رجل ملتزم، ثم أرجوك أن تكتب كلمة للشباب المستهتر العابث ألا يضيقوا بحرص آبائهم عليهم.. ومطالبتهم بالالتزام والنجاح لأنهم لا يستهدفون من ذلك إلا مصلحة هؤلاء الأبناء أنفسهم، ولكن جدّ شيء في الفترة السابقة دفعني لأن أعجل بالكتابة لك.. ذلك أن صورة وجه أبي الحزين كثيرا ما كانت ترد في ذهني في مناسبات عديدة، حتى أنه لم يكن يمضي يوم طوال السنوات الثماني عشرة الأخيرة، دون أن أرى بعين الخيال وجهه وملامحه المتعبة الحزينة. وحين أبلغني أستاذي قبل أسبوع بتحديد جلسة مناقشة الرسالة، رجعت إلى البيت سعيدا، وأبلغت أمي الخبر فأشرق وجهها بالفرحة فإذا بي أستعيد صورة أبي في مخيلتي فيخيل إليّ أن وجهه تشيع فيه هذه المرة ابتسامة حيية.. وأنه ليس حزينا كما كنت أراه دائما في مخيلتي.. فهل يعني ذلك أنه راض عني الآن يا سيدي؟ وهل تكتب للشباب ما أردت أن أقوله لهم بسردي قصتي هذه عليك؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لاعجب فيما ترويه عن تحولك من شاب عابث مستهتر متعثر دراسيا إلى إنسان جاد وملتزم وموفق في حياتك العملية والعائلية، عقب رحيل أبيك عن الحياة وتحمل مسؤولية الأسرة من بعده، ذلك أن وقر المسؤولية كثيرا ما يخلق الإنسان خلقا جديدا.. لأنها كالنار التي تصهر المعدن فتخلصه من شوائبه.. وتجلو جوهره الأصيل، وكذلك فعلت بك المسؤولية حين تحملتها راضيا وراغبا في التكفير عما أضعت من قبل في اللهو والعبث، وآملا في أن تطهرك هذه المسؤولية الثقيلة من وخز الإحساس بالذنب تجاه أبيك الراحل، فقد أشفقت على نفسك من شعورك المؤلم بأنك كنت سببا أساسيا لأحزانه في سنواته الأخيرة، فتفاعل لديك الإحساس بالمسؤولية الإنسانية والمعنوية عن الإخوة والضعفاء والأم الحائرة بعد رحيل الأب مع الإحساس بالذنب تجاهه.. مع الضمير الحي الذي لم يقتله فيك اللهو والعبث كما كان الظن، فأثمر كل ذلك هذه الشخصية الإيجابية الفاضلة، وقدت سفينة الأسرة إلى مرفأ الأمان.

فأما تحولك من العبث والاستهتار إلى الالتزام والجدية، فليس من المستغرب، فنحن حين نركب سيارة يقودها غيرنا، فإنه يتحمل مسؤولية أماننا وسلامتنا خلال الرحلة، وقد لانولي نحن انتباها كبيرا للطريق اعتمادا على قيامه هو بهذه المسؤولية عنا، وقد ينصرف ذهننا خلال الرحلة عن الطريق إلى أشياء أخرى، فإذا أفقنا من سرحاننا فجأة على اهتزاز عنيف واكتشفنا توقف السيارة؛ لأن قائدها قد أصيب بنوبة عارضة.. وجدنا أنفسنا مطالبين بأن نقود نحن السيارة، وبأن نولي كل اهتمامنا وانتباهنا للطريق بدلا منه، وبعد أن كنا ننصرف بذهننا عنه إلى التفكير بأشياء أخرى، لم يعد مقبولا منا أن نفعل ذلك وإلا هلكنا وهلك الجميع معنا.

وكذلك فعلت أنت يا صديقي حين غاب قائد الأسرة.. وأصبح من واجبك أن تتقدم أنت إلى مقعد القيادة.. وتحمي إخوتك ووالدتك من أخطار الحياة، ولقد توقفت وأنا أقرأ رسالتك الجميلة أمام مارويته عن أنك كنت ترتدي قبل رحيل أبيك فاخر الثياب وتدخن السجائر الأمريكية وتثور إذا لم تجد ما تحتاج إليه من نقود لدى أمك أو إخوتك، فأصبحت بعد أن صهرتك نار المسؤولية العائلية تكتفي بأجر المواصلات، وتضن على نفسك بالجديد من الثياب لكي تحافظ على مظهر إخوتك، وتذكرت ما رواه المسعودي في «مروج الذهب» عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز من أنه كان قبل أن يلي الخلافة يحيا بالرغم من صلاحه ونزوعه إلى العدل، حياة الأمراء المترفة وكيف كان من أكثر الناس اهتماما بملبسه حتى كان «يشتري الحلة بألف دينار فإذا لبسها استخشنها» ويشتري القميص بأربعمائة دينار فإذا لمسه بيده قال: «ما أخشنه وأغلظه» ويهتم بعطره وعطر ثيابه حتى قيل عنه إنه «أعطر قريش»، فلما ولى الخلافة ورد المظالم بدأ بنفسه فتنازل عن كل ما كان له لبيت المال، واكتفى من المال والمتاع بما يسد احتياجاته الضرورية

كحاكم عادل، وأصبح «ثمن حلته عشرة دراهم» ومع ذلك كان «إذا لبسها استلانها» كما روى المسعودي، فماذا جدَّ عليه وقد كان التقي الورع قبل الإمارة وبعدها؟.

لقد جدَّ عليه همه بالمسؤولية عن الآخرين.. ولم يكن من قبل مسؤولا إلا عن نفسه ودنياه الصغيرة.. وصادفت هذه المسؤولية ضميرا حيا فكان ما كان من أمره. فالمسؤولية هي أن ينشغل الإنسان بأمر الآخرين كما ينشغل بأمر نفسه، وجوهر المسؤولية الأبوية والأمومية هو الإيثار أي إيثار من يتحمل المرء المسؤولية عنهم على نفسه.. بالرعاية والحماية والعطاء.. ولو تعارض كل ذلك مع اعتباراته الشخصية.

ومن أجمل ما قرأت في تصوير هذه المسؤولية الأبوية ما رواه الرواة عن المحدث اللغوي الفقيه، الذي عاش في القرن الثالث الهجري إبراهيم بن إسحق الحربي من أنه كان لا يشكو إلى أمه وبناته وزوجته الحمى إذا أصابته، وإنما يتحملها صامتا لكيلا يزعجهن بأمره.. وأنه كان به صداع بأحد جانبي رأسه فتحمله صابرا 45 عاما لم يخبر به أحدا، وأنه عاش عشر سنوات من عمره بفرد عين، بعد أن انطفأ نور الأخرى لم يخبر بذلك أحدا من أهله!.

وكان يقول في تفسير ذلك إن «الرجل الحق هو الذي يدخل غمه على نفسه ولا يغم عياله».

والرأي عندي هو أن جوهرك كان سليما من الأصل، لكنه اعتوره ما قد يعتور المرء إذا استنام إلى أن هناك مظلة تحميه من صواعق السماء مهما أخطأ أو فعل. فلما زالت عنك هذه المظلة برحيل والدك عن الحياة، استنفرت إرادتك ونفضت عنك العبث والأنانية واللهو، وشعرت بأن مرحلة الاستهتار قد انتهت من حياتك إلى غير رجعة، فنهضت لتحمل المسؤولية التي كان يقوم بها والدك دون شكوى، ووجدت نفسك تردد لإخوتك من حيث لا تدري نفس عبارات أبيك عن الجدية والالتزام والتفوق، التي كنت تضيق بها من قبل.. وأدركت ثقل المسؤولية وتبعاتها وعرفت نوعا من مشاعر الأم نفسه أو الأب الذي يحترق لكي يضي حياة أعزائه.. ويحرم نفسه لكي يعطيهم.. ويكرس حياته لهم ناسيا خلال ذلك نفسه أو يكاد، ثم شعرت بالرغبة في الاعتذار لأبيك بأثر رجعي عن كل ما خيبت أمله فيه وسببته له من أحزانه.. فكان قرارك باستكمال دراستك الجامعية بنجاح ومواصلة دراساتك العالية والحصول على الماجستير ثم الدكتوراه بإذن الله.

لقد أحسنت الاعتذار يا صديقي لأبيك عن تخلفك الدراسي وانصرافك إلى بعض لهو الشباب وعبثهم خلال حياته، وكانت رعايتك لإخوتك ووالدتك ونفسك وطموحك الدراسي، هو خير اعتذار عن فترة العبث القصيرة والحمد لله في حياتك الجادة الفاضلة.

فأية غرابة إذن في أن يزورك طيف والدك الطيب باسما وراضيا عنك، بعد أن كان لا يجيئك من قبل إلا عاتبا وحزينا؟!.

لقد نلت سعادة الدارين بإذن الله ببرك بأمك وإخوتك واعتزازك بذكرى أبيك واتخاذك له مثلا أعلى.. فهنيئا لك مقدما درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى بإذن الله.. وهنيئا لك سعادتك المقبلة مع شريكة حياتك إن شاء الله.. وهنيئا لك قبل كل ذلك وبعده ما سوف تمطرك به السماء من جوائز السعادة والتوفيق والأمان. «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» صدق الله العظيم.

أما كلمتك إلى الشباب فإن رسالتها واضحة لكل ذي عقل.. وشكرا لك على رسالتك القيمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة إلى أب

أود أن أكتب إليك هذه الرسالة منذ عدة أشهر، وكلما أمسكت بالقلم وبدأت في ذلك تسقط دموعي على الورق، فلا أستطيع تكملة الرسالة، ولكن بعد أن تمالكت نفسي وخفت وطأة الأحزان عن صدري، أستطيع أن أكتب إليك بتلك الكلمات لعلها تصل إليك، فأنا فتاة من أسرة متوسطة الحال، أو كما يقولون من طبقة الموظفين، ولي من الإخوة ثلاثة: «ولدان وبنت»، وأمنا ربة بيت وكان والدنا موظفا بإحدى الهيئات الحكومية، وأقول «كان» لأنه الآن في ذمة الله فقد رحل أبي عنا منذ عدة أشهر في حادث سيارة، وهو يقضي لأخي الأكبر مصلحة له في بلدتنا..

فلقد كان والدي رحمه الله نوعا فريدا من البشر، إذ كان رجلا خدوما لا يطلب منه أحد شيئا إلا وقضاه له إذا كان في استطاعته، وكان أقاربنا وجيراننا وزملاؤه في العمل يعرفون هذا جيدا عنه، فلم يكن يمر عليه يوم إلا ويقضي فيه حاجة لأحدهم دون ضيق أو تبرم، كما كان يحمل بداخله كما من الرضا لو وزع على الأرض كلها لكفاها، وقانعا برزقه لم ينظر يوما إلى أرزاق الآخرين أو ممتلكاتهم بل ويحمد ربه دائما على الصحة والستر، وإذا ذكر أمامه أن فلانا عنده من الأملاك كذا وكذا قال: بارك الله له فيه وكنا نعيب عليه ذلك، ونعتقد أن الرضا والقناعة سلبية وعدم تطلع لتحسين مستوى المعيشة.

ومع الراتب الشهري لوظيفته كنا نحيا حياة معقولة جدا بفضل تدبير أمنا وحسن إداراتها لأمور البيت، التي كان والدي يتركها لها تماما واثقا في نجاحها في هذه المهمة الصعبة، وكبرنا وتخرجنا في الجامعة وعملنا في وظائف مرموقة، وأصبح لكل واحد منا راتب ينفقه كيفما يشاء، ولم يطلب والدي يوما منا أن نساعده في مصروف المنزل بل كان يعطي دون حساب. ومما أذكره له نشاطه غير العادي وتفانيه في خدمتنا ونحن صغار. وبعد أن كبرنا وأصبحنا قادرين على القيام بخدمة أنفسنا، لم يكن يتحرج من أن يغسل لأحد إخوتي قميصا أو جوربا أو يعد لنا الإفطار أو العشاء أو يخرج ليشتري لنا كل طلباتنا مع وجود إخوتي في المنزل، ولم يطلب من أحد منا أن يقضي له حاجة يوما.

وكان يعاملني أنا وأختي مثل أخوينا، بل أفضل منهما وإذا أحس بأن أحدا منهما أغضبنا، كان يأتي به أمامنا ويخبره بأننا لا نقل عنه في شيء بل إننا أفضل عند والدي منه؛ لأننا نذاكر ونساعد والدتنا في أعمال المنزل، أما هو فلا فائدة منه سوى لنفسه.

وهكذا نشأنا ونحن نشعر بأن لنا «ظهر» يساندنا ويقف بجانبنا دائما، وما أذكره له رحمه الله حنانه الذي ليس له حدود، ومدى انزعاجه إذا رأى واحدا منا يعاني نزلة برد أو عطس أمامه، إذ ينهض منزعجا يسأله عما به ويبادره بالشاي والليمون والدواء، وأتذكر أنه كان إذا مرض أحد منا كان هو الذي يعطيه الدواء، ولو في منتصف الليل ويضع بجواره «المنبه» ليوقظه ويأتي ليعطيه الدواء، لدرجة أننا كنا نضيق أحيانا بهذا الاهتمام، ونضحك منه.

ولم نكن ندري كم كان يحبنا، كنا نغضبه أحيانا بتصرفات الشباب غير الناضجة ونتضايق من عتابه لنا فكان يأتي لنا ويصالحنا وكأنه هو المخطئ، ولم نكن نقدر هذا له، ولم يكن يفعل هذا معنا فقط بل مع الآخرين أيضا.. إذا أخطأ أحد الزملاء أو الأصدقاء أو الأقارب في حقه يثور ويغضب، وفي اليوم التالي ينسى ما حدث، بل ويكون على استعداد لتقديم الخدمات لهذا الشخص.

كان والدي رحمه الله طيب القلب لا يحمل في قلبه ضغينة لأحد، يقدم كل ما في وسعه لإسعاد الآخرين دون أن ينتظر منهم المقابل، وكانت لي معه عدة مواقف لن أنساها ما حييت. عندما كان يتقدم لخطبتي أحد الشباب الذي يراه الجميع مناسبا ولا أرتاح إليه فتثور أمي ويتعجب أخوتي، فيكون هو الوحيد الذي يقول إنها حياتها وهي حرة فيها أو يتساءل كيف تعيش مع إنسان لا ترتاح إليه؟

إنه نصيب ونصيبها لم يأت بعد، ثم ينصحني بألا أتسرع في الحكم على الأشخاص الذين يتقدمون لي، وأن أفكر جيدا لأنه لن يفرض عليّ الارتباط بإنسان لا أريده، حتى تعرفت على شاب على خلق ويناسبني من كل ناحية، وحدثته هو وأمي بأن هذا الشاب يريد التقدم لخطبتي، فرحب والدي وقال إنه سيراه ويسأل عنه، وإذا وجده مناسبا سيوافق عليه لأنه يتمنى سعادتي أولا وأخيرا وتزوجته.

وكما فعل أبي معي في مسألة الزواج، فعل مع أختي وأعترف لك يا سيدي بأنني لم أرَ فيه هذه الصفات إلا بعد أن تزوجت وابتعدت عنه وجدتني اشتاق إليه وإلى حنانه وعطفه ولمسة يده لكتفي وهو يربت عليه، ولكن للأسف الشديد لم أستطع يوما أنا أو إخوتي أن نعبر له عن حبنا الشديد له، وأن نشعره بحناننا ورعايتنا له كما كان يفعل معنا، لقد رحل والدي عنا دون كلمة وداع، ودون أن يكون أحد منا بجواره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، رحل بعد أن ودع أقاربنا **جميعهم دون أن يودعنا نحن أبناءه الذين نعمنا بخيره سنوات طويلة ومازلنا، رحل دون أن يعرف كم كنا نحبه ونتمنى أن نقبل التراب الذي يمشي عليه، وتوفي والدي ودفن دون أن نراه ونلقي عليه النظرة الأخيرة** ولم **يتبق لنا منه سوى ذكرياتنا معه، وأمي التي أدعو الله أن يطيل عمرها ويقدرنا على أن نوفيها حقها ونظل في رعايتها وخدمتها ماحيينا**

والآن أعرف إنك تتساءل وماذا يهم القراء في هذه القصة؟ إنني أود أن أبعث إلى روح والدي رسالة حب وعرفان بالجميل، وأن أقول أنه لو عاد الزمن إلى الوراء لما انتقلنا من تحت قدميه هو وأمي نخدمهما ونسهر على راحتهما، كما أود أن أبعث برسالة لكل شاب وفتاة، ولكل ابن وابنة أن قبل يد أبيك وأمك صباحا ومساء، وعبر لهما عن حبك بكل الطرق، ولا تبخل عليهما بجزء مما وهباه لك طوال عمرك، ولو استطعت أن تحملهما فوق رأسك ولا تدع قدميهما تلمس الأرض فأفعل، وافعل هذا وهما على قيد الحياة لتسعدهما؛ لكيلا تندم على تقصيرك في حقهما بعد أن يرحلا دون عودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من المؤسف حقا أن يرحل عنا الأعزاء دون أن يعرفوا »عمق» ما تحمله لهم قلوبنا من محبة وإجلال واعتزاز، ودون أن تواتينا نحن القدرة على أن نسعدهم في حياتهم بحبنا لهم «ونبلغهم» به بأحر الكلمات وأصدق المشاعر، بدلا من الاستنامة الغافلة إلى توهم أنهم سيظلون في الجوار إلى الأبد.. وأننا سنستطيع في غد أن نبلغهم بما »نؤجل» اليوم إعلانهم به.. أو نتحرج منه.. أو نظنه يتنافى مع نضج العمر، وما بلغناه في الحياة من مراتب ودرجات.

مع أننا جميعا نحتاج ساعة لأن نذكّر من نحبهم كل يوم وربما كل ساعة لأن نذّكر من نحبهم بحبنا لهم.. ولأن يذكرنا من يحبوننا بمشاعرهم تجاهنا.. لكي نستمد منها القدرة على الاستمرار والإحساس بالرضا عن النفس والحياة.

ولقد ذكرتني رسالتك بما كتبه صادقا الأديب البرازيلي باولو كويلو حين قال: عرض علينا الحب، لكننا أدرنا ظهورنا له ببساطة. إذ كم مرة منعنا الخوف أو الحرج أو الاستكبار أو الاستسلام للعادة أن نقترب من شخص، ونقول له إننا نحبك!.

وليس هناك أسمى ولا أعمق أو أخلد من «الحب الذي عرضه علينا» أباؤنا وأمهاتنا منذ اليوم الأول لمجيئنا للحياة.. ولا من الحب الذي «عرضناه نحن» على أبنائنا منذ بداية رحلتهم في الحياة فما أعجب إلا من عاجز عن التعبير عن حبه لأبويه أو أبنائه، بالفعل والكلمات على السواء، وما أعجب إلا من «مؤجل» لإعلان هذا الحب وإسعاد الطرف الآخر به إلى ما بعد فوات الأوان، إن رسالتك يا سيدتي الشابة اعتذار جميل لأبيك الراحل يرحمه الله وإقرار بفضله وإعلاء لكل ما كان يمثله في حياتكم وفي الحياة بصفة عامة من قيم إنسانية وأخلاقية وتربوية شريفة.. فشكرا لك عليها وأرجو أن يتفكر فيها وفي معانيها جيدا كل الأبناء!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمات الخاطئة

تعودت أن أقرأ في بريد الجمعة هموم الآخرين، فتهون إلى جوارها مشاكلي.. لكني قد بلغت اليوم الحد الذي أجد نفسي معه في أشد البلاء والظلم فأنا سيدة شابة، كنت قد تعرفت خلال دراستي بالجامعة على شاب يكبرني بعامين، وبعد أن تخرجنا تمت خطبتنا.. وتزوجنا بعد ذلك بثلاث سنوات.. ولن أكذب فأقول لك إننا قد تزوجنا بعد قصة حب رائعة كما تقول سيدات كثيرا في رسائلهن ولا أن فترة الخطبة كانت أسعد أيام العمر.. لأن ما حدث كان على عكس ذلك تماما، فكانت فترة التعارف مليئة بالعذاب والمعاناة، وقررت خلالها أكثر من مرة الانفصال عنه، وفي كل مرة كان يرجع إليّ ونبدأ قصتنا معا من جديد، ولا أعرف حتى الآن لماذا كنت أصدقه في كل مرة.. وأتوسم فيه أنه سيكون إنسانا مختلفا.

وقد استمر الحال على ما هو عليه خلال فترة الخطبة، فلم تكن أقل معاناة من فترة الحب والتعارف.. لأنه قد أضيفت إلى طباع خطيبي الصعبة خلالها مشاكل الشقة والجهاز وخلافات العائلتين، لكني كنت أقول لنفسي دائما إنه يحبني وأنا أحبه، وأنه بمجرد أن يجمعنا بيت واحد ستزول كل الخلافات والعقبات، وسنصبح أسعد زوجين في العالم..

وهكذا احتملت فترة الخطبة، التي دامت ثلاث سنوات.. كانت معاملته لي خلالها في غاية السوء.. ووصلت علاقتنا خلالها إلى حافة الانهيار عدة مرات.. وفي كل مرة كنت أفقد فيها صبري وأطلب إنهاء الخطبة، كان يتحول إلى حمل وديع.. ويعدني بأنه سوف يغير طريقة تعامله معي... فأتراجع ونستمر في خطبتنا ثم لا يلبث أن يرجع إلى سيرته الأولى من جديد.

وأخيرا تزوجنا وحاولنا خلال الفترة الأولى من الزواج أن نسعد بحياتنا، وننسى كل ما جرى بيننا خلال فترتي الجامعة والخطبة، فلم تمضِ عدة شهور فقد حتى بدأت الخلافات بيننا من جديد، وكان من الممكن أن تكونَ هذه الخلافات عادية ومما يحدث بين أي زوجين، إلا أن ما أصبح يرافقها من سب وإهانة وضرب إلى حد أن يتورم منه جسمي قد دخل بي في مرحلة جديدة من المعاناة، لم أألفها في حياتي وأنا التي نشأت في أسرة هادئة ومحترمة، لم أرَ فيها سوى المعاملة الهادئة المحترمة والمودة والرحمة بين الزوجين.

وفي كل مرة كنت ألتمس له العذر فيما يفعل وأبرره لنفسي بأنه حين يتخلص من الضغوط والأعباء الواقعة عليه في عمله أو مع أسرته، فلسوف يرجع إلى رشده، لكني وبعد ثلاث سنوات من الزواج أنجبت خلالها طفلة، أرى سوء معاملته لي يتصاعد كالخط البياني الذي يتجه دائما إلى أعلى، ويتدرج من السب واللعن إلى الضرب.. إلى تحطيم الفازات وتحف المنزل إلى استخدام الشبشب، ومبرره دائما في ذلك هو انني قد أخطأت في حقه أو عاندته، والحق أنني وبعد أن تحملت كثيرا لم أعد أطيق السكوت وأصبحت أرد عليه، وألعن اليوم الذي رأيته فيه، في محاولة من جانبي لمعادلة إحساسي بأنني مقهورة أو مغلوبة على أمري..

والمشكلة هي أن زوجي يؤمن بأن من واجبه كرجل أن «يربي» زوجته ويعاقبها بما يعن له من عقوبات كالسب والضرب.. والحرمان من الخروج والحبس في غرفة من غرف البيت، يطلب مني ألا أغادرها طوال يوم التكدير، حتى ولو إلى الحمام، أما الزوجة فليس لها إلا أن تطيع زوجها، وإذا رفضت القبول بالعقوبة فلا يدعني أنام إلا وأنا «كالقتيلة» من الضرب، وكل جسمي يؤلمني.

ولقد فكرت كثيرا في الطلاق لكني أخشى على ابنتي من عواقب الانفصال إلى جانب أنني قد فقدت الثقة في نفسي.. ولست على يقين من أنني أستطيع مواجهة الحياة وحدي.. كما أن زوجى العزيز يرى أنني لا أصلح لشيء فلا أنا ناجحة في نظره كزوجة ولا كأم ولا كسيدة لأنني غبية ومستهترة وشخصيتي ضعيفة و مهزوزة... إلخ، والحق أنني أشعر بأن بداخلي شيئا مكسورا بالفعل حتى أنني لا أقوى على محادثة أى صديقة لي لشعوري بأنني لست امرأة لها كيانها وإنما أنا أقل من كل السيدات، اللاتى أعرفهن من ناحية الشخصية والكيان وليس من ناحية الشكل أوالمادة.

ولا يهون عليّ بعض ما أعانيه مع زوجي إلا إحساسي الداخلي بأن الله يعاقبني بذنبي؛ لأني قد أغضبت أبي وأمي وتحديتهما وأصررت على الارتباط بزوجي وإتمام زواجي منه بالرغم من أنهما قد اكتشفا عيوبه ونصحاني كثيرا بعدم الزواج منه، فتزوجته رغما عنهما وأنا أعلم أنهما غير راضيين عني.. ولهذا فإني أعتبر نفسي الابنة العاقة التي لم تطع أبويها، فأذلها الله بزوج يفتري عليها وليس أمامها إلا أن تطيعه وتتحمله..

والمفارقة هي أن زوجي يعتبر نفسه طيب القلب وحنونا ويراعي الله في بيته وزوجته، ولا يفوته فرض من الفروض الدينية، لكنه إذا خاصم فجر» وقد قررت ألا أنجب ثانية حتى لا يصاب أبنائي بالعقد النفسية بسبب هذا الأب الظالم المستبد.. وأنا الآن في صراع بين هل أربي ابنتي في هذه البيئة غير الصالحة نفسيا وتربويا لتنشئة أطفال أسوياء، أم أنفصل عن زوجي وتتحمل ابنتي عواقب هذا الانفصال، وإذا كنت أنا أستحق هذا العقاب لأنني أغضبت أبي وأمي، فما ذنب طفلتي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

المقدمات الخاطئة لابد أن تؤدي إلى نتائج مماثلة، وأنت قد لمست خلال فترة التعارف الأولى وطوال فترة الخطبة التي استغرقت ثلاث سنوات كل سلبيات شخصية زوجك التي حذرك منها أبواك كثيرا، وبالرغم من ذلك فلقد تجاهلت النذر الخطيرة وتمسكت بالأمل الواهي الذي يتعلق به آخرون في مثل ظروفك، في أن ينجح الحب في النهاية في احتواء السلبيات واستكمال المسيرة في أمان.

ولقد قلنا مرارا إنه إذا كان الحب قلبا غفورا، فإنه لا يكفي وحده لتهيئة الظروف الطبيعية لاستمرار الحياة الزوجية، لأن العنصر الأساسي في ذلك هو حسن

المعاشرة والاحترام المتبادل بين الطرفين واعتدال المزاج النفسي لكل من الزوجين وتقارب رؤيتهما للحياة، وتوصلهما معا إلى حل مرض لهما معا للمشاكل الأساسية كالإنجاب والعمل ومستوى المعيشة والدخل... إلخ. أما الاعتماد على الحب وحده كقاسم مشترك أوحد بين طرفين لا يربط بينهما بعد ذلك أي جامع آخر، فإنه لا يؤدي غالبا إلا إلى الفشل والمعاناة بعد فترة تطول أو تقصر.

وسلبيات شخصية زوجك كما فهمتها من سطور رسالتك هي الحدة والعصبية.. وصغر السن، حيث لا يزيد فارق العمر بينكما على عامين، ومفهومه الخاطئ عن حق الرجل في «تربية» زوجته بالسب والضرب والحبس والحرمان من أي شيء يراه مناسبا للحال.

ولقد توقفت في رسالتك أمام الأثر النفسي السلبي الذي خلفه اعتياده معاقبتك بالضرب المبرح.. وهو افتقادك الثقة في النفس وإحساسك بالعجز عن مواجهة الحياة وحدك، وشعورك بالدونية تجاه غيرك من السيدات من ناحية الشخصية والكيان، وهي كلها نتائج طبيعية للقهر وافتقاد الإحساس بالجدارة والكرامة الإنسانية والأمان.

ومن عجب أن هذه الآثار السلبية قد تدفع من يتعرض لها لزيادة الاعتماد على من يقهره ويسحق شخصيته بدلا من الثورة عليه في بعض الأحيان، تماما كما قد تتعلق الشعوب المقهورة في بعض المراحل بالطغاة الذين يحكمونها ليس حبا لهم.. وإنما خوفا من التغيير والمخاطرة؛ لأنهم قد حطموا إرادتها بالقهر والإذلال وأفقدوها الثقة في قدرتها على امتلاك مصائرها.

وقديما قال أديب الإنجليزية الأعظم شكسبير على لسان كاسيوس في مسرحية يوليوس قيصر: «لو لم يكن أهل روما وعولا.. لما أصبح قيصر أسد» وما ينطبق على الشعوب قد ينطبق في بعض الأحيان على الأشخاص في حياتهم الخاصة، وجزء كبير من احتمالك لسوء عشرة زوجك لك يرجع إلى تسليمك في أعماقك باعتباره عقابا سماويا لك على تجاهلك للمقدمات الخاطئة، وتحديك لإرادة أبويك بالمضي في مشروع الزواج بالرغم من كل النذر المحذرة، غير أن لكل «عقاب» حده الأقصى يا سيدتي.

ومن حقك على زوجك الذي مازلت بالرغم من كل شئ تحبينه وتتمسكين بالأمل فيه أن يحسن عشرتك، ويتخلص من مفهومه الخاطئ عن واجب الرجل في «تربية» زوجته. ويكف نهائيا عن مد يده بالأذى إليك مهما تكن أسبابه ومبرراته.. ومن واجبكما أن تتوصلا معا إلى كلمة سواء، يستجيب عندها كل طرف منكما إلى مطالب الآخر منه لكي تتفاديا أسباب الأحتكاك والصدام.

فإذا كان المثل الإنجليزي يقول إن الأمر يحتاج إلى شخصين لكي تقع مشاجرة، وأنه لا يمكن أن تقع مشاجرة بين طرف واحد ونفسه! فإن ذلك يفرض على كل منكما أن يتفادى بقدر الإمكان استفزاز الآخر أو استثارته.. أو تجاوز خطوطه الحمراء، التي يعلم علم اليقين أنه لا عائد لتجاوزها إلا الصدام والعراك.

وفي كل الأحوال فإن التزام الحدود المرعية في الخلاف كفيل يتجنب الشطط والانفلات والإيذاء البدني والمعنوي.

فأدعي زوجك يا سيدتي إلى فتح صفحة جديدة في حياتكما معا، لا يكون فيها أي مجال للإكراه البدني والإهانات الجارحة، واشعريه بعزمك على عدم قبول الإهانة والإيذاء بعد ذلك، ولو أدى الأمر إلى التسليم بفشل التجربة وتحمل تبعات الفشل أيا كانت.

ولا بأس إذا اقتضت الضرورة وبعد أن تستنفدي معه كل الحيل في أن تستعيني عليه بأهله أولا ثم أهلك ثانيا، وذكريه في كل حين بأن «طيبة قلبه» و «حنانه» و «رعايته لحدود ربه» في بيته وأسرته لا تكتمل إلا بأن يتأسى بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في حسن معاملته لزوجته، وهو القائل «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» صدق رسول الله ﷺ، فإن لم تجد كل الحيل في النهاية فلا مفر من الاعتراف لنفسك بخطأ الاختيار وتصحيحه بنفس «القدرة» التي استطعت بها من قبل تجاهل كل علامات التحذير.. والاستمرار في مشروع الزواج الذي لم يرضى عنه أبواك وحذرا منه منذ البداية!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصورة الحقيقية

لن أبدأ رسالتي بأن أقول إنني لم أكن أتصور أنه سوف يجئ يوم أكتب لك فيه، كما يقول كثيرون ممن يرسلون إليك بمشاكلهم.. وإنما سأقول لك إنني فكرت عشرات المرات من قبل في أن أكتب لك لا طلبا لحل مشكلتي، وإنما لكي أتخفف مما تحمله نفسي من هموم..

فأنا فتاة نشأت يتيمة الأب والأم في زمن، خلت فيه قلوب بعض البشر من الرحمة.. ليس كل الناس ولكن بعضهم فمازال في الدنيا الرحماء، لكن أقداري شاءت لي التعامل مع غيرهم في كثير من الأحيان.

ولقد وجدت نفسي أعيش مع أخ يكبرني بثمانية أعوام وأخت تصغرني بثلاث سنوات.. وأخي هو المسؤول عنا.. وهو رجلنا الذي نستند إليه وننتظر منه الحماية والعطف والحنان، ولكن لا أتذكر- على العكس من ذلك - إنه قد قال لي أو لأختي ذات يوم كلمة حب أو حنان واحدة، وإنما كان دائما قاسيا علينا وجافا معنا، وكلما حدثته عن حاجتنا للعطف والحنان منه ونحن لا نعرف لنا أبا أو شقيقا غيره، كان يسخر مني ويقول لي كيف أعطيكما الحب والحنان، وأنا لم أتذوقهما من قبل!.

كما لا أتذكر يوما من الأيام أنه رجع إلينا ومعه قطعة قماش حتى ولو كانت بالية ليقدمها لي أو لأختي في مناسبة عيد أو غيره من المناسبات، وإنما كنا نعتمد على ما يعطيه لنا الأقارب من ملابسهم المستعملة، مع أن له دخلا يوميا لا بأس به، وهو إنسان متعلم ويعي جيدا أنه مسؤول عني وعن أختي.. لكن التضحية توهب ولا تطلب كما قرأت لك في بعض ردودك.. وهناك من يضحي من الآخرين، وهناك من يضحي بالآخرين من أجل نفسه، وأخي للأسف من النوع الثاني.. وكان ولا يزال أنانيا يحب دائما أن يعتمد على الغير في شؤون حياته.

فمضت حياتنا معه طوال السنوات الماضية في سلسلة من الإهانات والضرب والسب ولعن أمنا، التي لا تستحق منه إلا الدعاء لها بالرحمة، ولم يكن يهدأ لها بال وهي على قيد الحياة إلا حين تطمئن على عودة شقيقنا واستقراره في فراشه.. فهل تستحق الأم التي حملت ابنها تسعة أشهر أن يلعنها الابن وهي بين يدي ربها؟!.

ولقد مضت بنا الأيام بخيرها وشرها إلى أن تخرجت، والتحقت بإحدى الوظائف واستغنيت والحمد لله عن الملابس المستعملة..

وتعودت مع أختي بفضل من الله أن نكون مع الناس وللناس، فلم نرث الأنانية عن شقيقنا، وإنما تعودنا على العطاء ولو كان قليلا، وعلى الاعتراف للآخرين بالجميل ولو كان بسيطا.

لكن المشكلة يا سيدي هي أن أخي يزداد سوءا معنا يوما بعد يوم، ونظراته إلينا تزداد حدة وقسوة ولا أدري لماذا مع أنه مع الآخرين في منتهى الرقة، وأمام

الأهل يبدو في صورة مختلفة تماما، ولو كان يتلطف بنا عشر تلطفه الآخرين لكنا قد عشنا في غاية السعادة.

إنني لا أدري لماذا كل هذه القسوة من أقرب الناس إلينا.. والغرباء يتعاملون معنا بكل رقة.

وكل صديقاتي يقلن لى: اصبري.. ولسوف يكون لك بإذن الله بيت وزوج وأولاد، وسيعوضك ربك عن كل سنوات العذاب، لكنه حتى لو تحقق ذلك فلسوف ينغص على سعادتي تفكيري في أختي وفيما تلقاه من قسوة وهوان مع أخي.. فكيف حتى ولو تحقق هذا الحل السعيد، أدعها وحدها تحت رحمة من لم يرحمها صغيرة ولا كبيرة؟

إن سؤالي إليك في ختام رسالتي هو: من لليتيم يا سيدي إذا قسا عليه أقرب الناس إليه.. ولم يرق له قلبه؟..

ألم يقل الله سبحانه وتعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}؟..

إنني أرجوك أن تكتب لكل من يجد نفسه مسؤولا عن يتيم مغلوب على أمره أن يتقي الله فيه، ويتذكر قوله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ}.. وقوله: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ}.. وقوله: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} وأرجوك أن تذكر الناس بأن لهذا العالم ربا قويا يقول للشيء كن فيكون، وقادرا على أن يبدل الأوضاع ويحمي الضعيف ويقهر القوي المفتري بقوته على الضعفاء، كما أرجو أن يستجيب الله لدعائي ويتصفح أخي الجريدة ولو لمرة واحدة في حياته، فيقرأ رسالتي هذه وكلماتك الحكيمة له فتمس قلبه، وتحرك الجانب الإنساني فيه وترقق قلبه على شقيقتيه.. وشكرا لك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا كان شقيقك لا يتصفح الصحف فلا بأس بأن ينبهه أحد إلى قراءة رسالتك المؤلمة هذه، لكي يرى فيها صورة نفسه الحقيقية ويستبشعها.. فلا شك أنه ليس مما يسعده بنفسه أن يراها في صورة الأخ الأكبر، الذي لم يرحم يتم شقيقتيه ولا ضعفهما وإنما قسا عليهما بدلا من أن يترفق بهما، وضاق بمسؤوليته الإنسانية عنهما، بدلا من أن ينهض بها راضيا ومستبشرا بما سوف يناله من خير عميم وأجر عظيم جزاء وفاقا لقيامه بها.

والإنسان يحتاج من حين لآخر إلى من يضعه أمام مرآة لا تكذبه وتعكس صورته الحقيقية، وليست تلك التي يتوهمها عن نفسه أو يظهر بها أمام الآخرين.

ولا شك في أن الصورة الخارجية لشقيقك أمام الأهل والآخرين هي صورة الأخ الأكبر الذي اختارت له أقداره أن يكون الأب الرحيم لشقيقتيه اليتيمتين والمسؤول

الأول عنهما.. وهي صورة تبعث على الاحترام وتثير التعاطف ويستفيد منها صاحبها معنويا بين الأهل والآخرين بقدر ما يتكبده من عناء بسببها.

ولقد كان من الممكن أن يكون المظهر كالمخبر.. ويكون شقيقك هذا ممن قال عنهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «من وضع يده على رأس يتيم رحمة.. كتب الله له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة»، لولا أنه قد ضيع معظم أجره عن كفالته لاختيه بقسوته عليهما وإهانته لهما وضيقه بمسؤوليته عنهما.

وبعض من تضعهم أقدارهم في موضع المسؤولية عن أخواتهم اليتامى يسخطون على أقدارهم أن حملتهم هذه المسؤولية، وقد كانوا يرجون لأنفسهم أن ينطلقوا في الحياة كالطير الشريد الذي لا تثقله القيود، ويخلطون في ضيقهم بهذه المسؤولية الإنسانية بين الأسباب والنتائج، فينفسون عن ضيقهم بمسؤوليتهم بالضيق برموزها، وهم للأسف هؤلاء الأخوة الحيارى اليتامى الذين لم يختاروا لأنفسهم اليتم ولا لشقيقهم الأكبر المسؤولية عنهم.. وإنما هم ضحايا لأقدارهم كما هو ضحية لها.

ولقد شرفه ربه بالمسؤولية عنهم، فلم يحسن رعاية هذه المسؤولية ولم يدرك شرفها ولا أثرها الإيجابي العميق في حياته، فلقد كرمه الأهل والأقربون لحمله هذه المسؤولية.. وفتحت أمامه أبواب لم تكن لتفتح لو لم تكن في عنقه تلك الأمانة.. وعفي من أخطائه وتجاوزاته عما لم يكن يعفى عنه، لولا تقدير الآخرين لثقل مسؤوليته، ونجا هو نفسه من عثرات وكبوات لم يكن لينجو منها، لو لم تكن السماء قد ترفقت به رعاية لمن يعتمدون عليه في حياتهم، فكيف يضيق عاقل بما يشرفه به ربه؟ وكيف تسول له نفسه أن يقسو على ودائع السماء لديه، وقد وعده ربه بالجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة إن هو أحسن رعايتها.. ورعى حدود ربه فيها؟.

إن بعض أسباب عنائك أنت وشقيقتك وأمثالكما، هو أن من يتحمل هذه المسؤولية يواجه دائما من جانب الإخوة الضعفاء الانكسار النفسي أمامه.. فلا يعاتبون على عدوان إذا اعتدى عليهم ولا يشكون من إساءة إذا أساء إليهم.. فيغريه ذلك للأسف بالتمادي.. وانتهاك حقوقهم وتمييز النفس دونهم.. وهذا هو تفسيري لما أشرت إليه في رسالتك من «أنانية» شقيقك في تعامله معكما.

والاعتراف بالجميل لا ينبغي له أن يعني الانكسار النفسي، والتنازل عن الحقوق، وأهمها حق التعامل الكريم والإنساني معكما، دون تجنٍ أو عدوان.

فإذا كان الأمس هو ذكرى اليوم والغد هو حلمه، كما يقول الشاعر جبران خليل جبران.. فإن حلم اليوم بالنسبة لك ولشقيقتك هو أن يمسح الغد القادم كل الأحزان، ويهيئ لكما كل ما تستحقان من سعادة وكرامة وأمان، ولكي يتحقق ذلك بإذن الله فإنه من المفيد لكما ألا تكتفيا بعد الآن بالشكوى الباكية للصديقات من قسوة الأخ أو سوء معاملته، مع كبت المشاعر والآراء في مواجهته، وإنما يجدر بكما أن تجتازا حاجز الرهبة والانكسار في تعاملكما مع شقيقكما إلى التعامل الطبيعي، الذي يسمح لكما بمعاتبته دون صدام معه إذا أساء إليكما.. ومناقشته في أسباب

سوء معاملته لكما إذا تمادى فيها، ومطالبته بأن يحدد لكما ما ينكره عليكما؛ لكي تجتنباه وتعيشوا معا في كرامة وسلام، وما يريده منكما لتجتهدا في الالتزام به.

فهكذا ينبغي أن تكون علاقة الإخوة ببعضهم البعض.. عتابا وحوارا ومناقشة ودية.. وليست كبتا وأنينا وعجزا عن الحوار.

ولا شك في أنه سوف يستجيب للحوار معكما تدريجيا، ويغير من معاملته القاسية لكما؛ لأنه في النهاية شقيقكما الذي لا غنى لكما عنه ولا حياة له بدونكما مهما تراءى له غير ذلك، ولا بأس عند الضرورة من الاحتكام للأهل، وتدخلهم بينكم، غير أني آمل في ألا تحتاجا إلى ذلك.. كما أرجو أن أقرأ لك في القريب العاجل رسالة أخرى تطمئنيني بها على تحسن الأحوال إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجاعة الحياة

منذ شهور وأنا أفكر في أن أكتب إليك.. ولا أجد في نفسي القدرة على الإمساك بالقلم..

فأنا رجل في الثانية والأربعين من عمري، نشأت بين أب شيخ يعمل بالتدريس بالمعاهد الدينية، وأم لا تعرف من الدنيا سوى طاعة زوجها والحدب على أبنائها، وشقيق يكبرني وأخت تصغرني، وتنفست منذ طفولتي هواء الحب العائلي والحياة الهادئة الوادعة..

فأبي يوجهنا ويرشدنا إلى ما فيه صلاح أمرنا وأمي تفيض علينا بحبها وحنانها وعطفها في كل حين.. وبالرغم من قلة موارد أبي فلقد عشنا حياة راضية دائما بفضل طيبة أبي وتدينه، وحكمة أمي وتفننها في إدارة شؤون بيتنا، فلم نشعر ذات يوم بالحرمان ولا بالنقص، وكان أبي يلبي دائما كل مطالبنا في حدود قدرته، وكانت لنا مسراتنا العائلية الجميلة.. كالتفافنا حول أبينا بعد أن نرجع من صلاة الجمعة لكي نلعب معه الدومينو، التي كان يجيدها أبي أجادة مطلقة منذ أيام دراسته بالأزهر، ويهزمنا فيها الواحد بعد الآخر قبل أن نجتمع حول غداء يوم العطلة المميز، وكالياليي حفلات أم كلثوم الشهرية التي كان يستعد لها أبي بشراء الفول السوداني واللب والبندق، ونضع أدوات صنع الشاي على المائدة القريبة لكي نقوم بإعداده خلال الاستماع، ويطرب أبي لسماع الغناء، ويلفت انتباهنا إلى معاني الكلمات الراقية وأبيات الشعر الرصين التي تشدو بها أم كلثوم، وكمناسبات نجاحنا في الشهادات العامة، ودعوته لبعض زملائه الشيوخ إلى العشاء احتفالا بنجاحنا وزهوه بنا أمامهم في كل مرة، ودعائه الدائم لنا بالفلاح والنجاح في الحياة.

فعشنا في رحابه حياة آمنة سعيدة، ورحل عن الدنيا راضيا مرضيا ونحن في سنواتنا الأخيرة بالتعليم الجامعي، فبكيناه وافتقدنا حبه وعطفه وتعاهدنا على أن نحقق له آماله فينا، فلم يمض على رحيله ثلاث سنوات حتى كنا قد تخرجنا كلنا في كلياتنا.. وأثمر دعاؤه الصالح لنا فعملنا جميعا، وخطبت الأخت الوحيدة لمدرس زميل لها.. وتكاتفنا بمرتباتنا ومعاش الأم والأخت على تجهيزها وتزويجها معززة مكرمة، وقضينا بعد زواجها ثلاثة أعوام نسدد أقساط جهازها من مرتبي ومرتب شقيقي.

وببركة الأب الصالح أتيحت لشقيقي الأكبر فرصة العمل في إحدى الدول العربية، عن طريق زميل وصديق لأبي يعمل هناك، فسافر مودعا مني ومن أمي وأختي بالدعاء.. وخلا بيت الأسرة عليّ وعلى أمي. فأصبحت متعتي الأولى أن أجلس إليها بعد الغداء كل يوم لأتناول الشاي معها، وأسمع حديثها العذب وأحدثها عن نفسي وعن يومي وما فعلت فيه، ثم أنهض للخروج في الأصيل للقاء الأصدقاء.

وفي جلسة العصر هذه كثيرا ما حدثتني أمي عن أمنيتها الغالية في أن أتزوج أنا وشقيقي، ويسعد كل منا بزوجته وأبنائه.

ولم تكتف بالأمنيات وإنما راحت ترشح لي ولشقيقي كل يومين عروسين جديدتين.. وتحث أخي في التليفون على الموافقة، إلى أن نجحت جهودها مع شقيقي بالفعل، وجاء في إجازة ليرى العروس المرشحة واقتنع بها، ولم تمضِ شهور حتى كان قد تزوجها واصطحبها معه إلى مقر عمله.

أما أنا فلقد «عصلجت» معهما ولم أقتنع بمن رشحتهن لي إلى أن جاء النصيب، والتقيت بزميلة لي في العمل وأحببتها وأحبتني وخطبتها بمباركة أمي.. ورحبت فتاتي بعد مقابلتها. لأمي عدة مرات بالإقامة معها في مسكننا بعد الزواج، وبذلك حلت مشكلة الشقة التي يمكن أن تؤخر زواجي بضع سنوات وتزوجنا.. ووجدت زوجتي التي نشأت في أسرة عانت من الشقاق بين الأبوين في بيتنا جوا عائليا مختلفا سعدت به، ودهشت لكم الحنان الذي تغدقه عليها أمي. وأنجبنا طفلينا خلال ثلاث سنوات، وعلمت أمي زوجتي كل أسرار الأمومة.. وحملت عنها عبء رعاية الصغيرين خلال فترات عملها.. وقالت لي زوجتي بعد ولادة الطفل الثاني إنها لو خيرت الآن بين الاستمرار في الإقامة مع أمي، أو الاستقلال بمسكن خاص بها لرفضت بإصرار أن تغادر بيتنا.. القديم

أما شقيقي فلقد أنجب هو الآخر من زوجته طفلين واستقرت حياته في الغربة، واشترى لنفسه شقة في مصر، وأثثها لكي يقضي بها شهر الإجازة كل عام، فأصبح يمضي بها بضعة أيام ثم تلحق زوجته بأهلها مع الطفلين، ويسرع هو بالانتقال إلى البيت كما نسميه ليقضي معظم الإجازة بيننا.. ويستمتع بجلساتنا الهانئة، ونمضي السهرة في شرفة البيت أنا وهو وأمي نجتر ذكرياتنا العائلية في نشوة واستمتاع حتى الفجر.. ثم تمضي أيام أجازته كالبرق ويغادرنا على أمل اللقاء في العام المقبل، وبإلحاح من زوجته اشترى أخي شاليها» في مدينة ساحلية بالوجه البحري، لكي يقضي فيه بعض أيام أجازته الصيفية..

ومنذ ذلك الحين أصبح أخي يقضي بعض أجازته في هذا الشاليه ويلح علينا للسفر إليه لبضعة أيام كل مرة، فترفض أمي. وفي صيف العام الماضي لم يحضر أخي في موعده السنوي بسبب ظروف في عمله اضطرته لتأخير اجازته.. وانقضت أن يحضر الشهور دون أن يحضر حتى فقدنا الأمل في عودته ذلك الصيف.. لكننا فوجئنا بحضوره في أواخر شهر أكتوبر، وإصراره هذه المرة على أن نسافر معه إلى المصيف لكي تمضي معه بعض الأيام هناك، ورفضت أمي كالعادة..

وقالت له إن الصيف كاد ينقضي، وإنه من الأفضل له أن يقضي أجازته معنا في المدينة لكنه أصر على سفرها وسفرنا معه، واستجابت أمي في النهاية لإلحاحه، ورجته أن يمهلها أسبوعا يقضيه وحده مع أسرته في المصيف ثم تلحق به..

وبعد أسبوع رجع أخي ليصطحبنا معه في سيارة أجرة.. لكن ظروف عملي لم تسمح لي بالسفر، فاصطحب أمي وزوجتى والطفلين على أن ألحق بهم بعد ثلاثة أيام.. وسافر الجميع في الصباح الباكر سعداء بهذه الأجازة غير المتوقعة.. وخرجت أنا إلى عملي.. ثم رجعت إلى البيت الحالي وداهمني إحساس غريب بالانقباض، حتى ندمت على سماحي لهم بالسفر دوني.

وحاولت أن أغفو بعض الوقت فلم يطاوعني النوم، فنهضت إلى الحمام واغتسلت وصليت العصر، ثم ارتديت ملابسي استعدادا للخروج، فإذا بجرس الباب يدق وفتحته فوجدت أمامي أمين شرطة ومعه بواب العمارة وبعض الجيران، والجميع متجهمون وتساءلت في قلق: خيرا.

فتبادلوا جميعا النظرات كأنهم يحثون بعضهم البعض على الكلام ثم قال لي أمين الشرطة إنى مطلوب للسفر إلى المصيف؛ لأن حادثا قد وقع للسيارة التي سافرت بها أسرتي، وهناك مصابون في الحادث.. ولم أستوعب ما قيل لي في البداية.. وكررت السؤال على الأمين فأجابني الإجابة نفسها.. وعجزت عن الكلام والتصرف والحركة، ووجدت أحد جيراني يحثني على الخروج، ويقول لي إنه سوف يصطحبني معه في سيارته..

وبصعوبة شديدة تحركت وخرجت معه.. وقلبي يخفق بشدة.. وركب معنا في السيارة اثنان آخران من الجيران، راحا يطمئناني ويؤكدان لى أن الإصابات ستكون بسيطة بإذن الله.. وخلال الطريق تشجع أحدهما، وقال لي وهو يذكرني بربي وإيماني إن والدتي قد قضت نحبها في هذا الحادث، فانفجرت في البكاء.

وبعد مسافة أخرى في الطريق راح جار آخر يحدثني عن الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره.. وكلما استمر في الحديث ازداد انقباضي إلى أن صمت برهة، ثم طلب مني أن أحتسب عند الله أيضا زوجتي والطفلين! لأن سيارة نقل ضخمة قد دهمت السيارة التي كانوا يركبونها من الخلف فمات كل من كانوا فيها وأصيب شقيقي الذي كان يجلس بجوار السائق، ولم أسمع بقية كلماته..

وأفقت بعد فترة من الوقت فوجدت وجهي مبللا بالماء ورائحة الكولونيا تملأ أنفي.. والسيارة واقفة وجيراني الثلاثة يحيطون بي والدموع في عيونهم.

وتوالت الأحداث بعد ذلك أمامي، وأنا لا أشعر بشيء ولا أرى شيئا ولا أسمع شيئا، وتم اصطحابي إلى المستشفى لتسلم أسرتي والعودة بها إلى المدينة، وتولى جيراني الإجراءات الكئيبة، وتنبهت في ذهولي إلى أن شقيقي المصاب موجود في نفس المستشفى فطلبت زيارته للاطمئنان عليه وقادوني إلى العناية المركزة فرأيته عن بعد والضمادات تحيط به، وغادرت المستشفى مع جيراني ومعنا أفراد أسرتي الذين كانوا حتى قبل ساعات قليلة يملأون حياتي بالبهجة والسعادة، ورجعنا للمدينة.. وتمت الإجراءات الحزينة وأنا لا أشعر بنفسي ولا بما يجري أمامي.. ووجدت زوج شقيقتي يجذبني من يدي لأمضي الليل عنده استعدادا لإقامة العزاء مساء اليوم التالي..

وارتمت عليّ أختي وهي تصرخ وتولول.. وقد بح صوتها وجفت دموعها، وزوجها يحاول إبعادها عني دون جدوى..

وفي مساء اليوم التالي وقفت مع زوج شقيقتي وأقارب والدي ووالدتي أتلقى العزاء في أسرتي كلها.. وقدماي لا تقويان على حملي.

وفي اليوم الثالث سافرت إلى المستشفى الذي نقل إليه أخي.. ووجدته مازال في العناية المركزة.. وألقيت عليه نظرة، فنظر إلى حزينا، وقال لي في صوت ضعيف: سامحني!

ولم أدرِ على ماذا يطلب مني أن أسامحه، وقد أراد لأسرتي الخير وأراد القدر لها شيئا آخر.

وبعد أسبوع نقل أخي إلى مستشفى قريب بالمدينة، فأصبحت زيارته وقضاء اليوم معه أو القرب منه هو سلواي الوحيدة، وكلما رأنى بكى وجذب يدي إليه؛ محاولا أن يقبلها حتى كففت عن الاقتراب منه..

وبعد شهر آخر استطاع الحركة وسافر وساقه وذراعه في الجبس إلى مقر عمله لكيلا يفقد وظيفته.. وبعد سفره أصررت بالرغم من معارضة أختي وزوجها على العودة إلى البيت، الذي شهد حياتي بين أبي وأمي وأخوتي، ثم سعادتى بين زوجتي وطفليّ وأمي.

وقد مضت الآن تسعة شهور على الحادث لا أعرف كيف مرت ولا كيف طلع على الصباح في كل يوم منها.. ولقد عولجت لدى طبيب نفسي اصطحبني إليه شقيقي حين رجع بعد شهرين للاطمئنان عليّ، ومازلت حتى الآن لا أنام بغير المهدئات والمنومات.

وبعد فترة إجازة من العمل، رجعت إليه فأحاطني رئيسي وزملائي باهتمامهم.. ولاحظت أنا نفسي كثرة سهوي في العمل بسبب ضعف تركيزي حتى أصبحت لا أثق في أي عمل أقوم به.. إلا إذا راجعه بعدي أحد زملائي، وأعفاني رئيسي من موعد الانصراف تاركا لي حرية الخروج من العمل في أي وقت أشاء، وشكرته على ذلك لكني لم استخدم هذا التصريح أبدا، إذ إلى أين أذهب إذا خرجت من العمل.. ولمن أعود وقد أصبح بيتي خاليا من كانوا يملأونه دفئا وحبا وبهجة.

إنني لم أكتب إليك لكي أشكو إليك من أقداري.. وحاشاي أن أفعل وأنا الرجل المؤمن المصلي الصوام، ولكني أكتب إليك لأن هناك بعض الخواطر التي تلح عليّ وتشغل ذهني وتشتت تركيزي، فلقد أكون منهمكا في العمل.. فتهاجمني هذه الخواطر وتستغرقني كلية فلا أشعر بالوقت ولا أسمع من يخاطبني ولا أتحرك من موقعي إلى أن تنصرف عني.. وأولى هذه الخواطر، هل كان ما حدث عقابا لي من ربي على ذنب جنيته أو خطايا ارتكبتها؟

وهب أن الأمر كذلك فلماذا كان العقاب مشددا وقاسيا على هذا النحو؟ لقد قرأت أن بعض الطغاة كانوا إذا أرادوا معاقبة أحد بقسوة بالغة لم يقتلوه وإنما قتلوا أعزاءه وتركوه يعيش بعدهم لكي يكون عذابه مضاعفا.. بدلا من أن يحكموا عليه بالموت فيستريح، فهل كان عقابي من هذا النوع؟

وأي ذنب جنيته لكى استحق هذا العذاب المضاعف؟

لقد راجعت حياتي كلها وخطاياى وآثامى، فلم أجد فيها ما يبرر هذا العقاب القاسي.. ووجدتني على العكس من ذلك قد نشأت في بيت علم ودين، وتربيت

على الفضائل والتزمت بفروض ديني، ولم أعرف قبل زوجتي امرأة وكنت بارا بأبي وأمي وأخوتي ولم أؤذِ في حياتى أحدا، ولم أسرق ولم أرتشِ ولم آكل حراما.. ولم أتطلع إلى ما في يد غيري، فكيف أبرر لنفسي إذن هذا العقاب؟

لقد ظننت بعقلي الظنون حين رأيت مرارا أطياف أحبائي تطوف حولي في البيت الذي خلا منهم وحين خيل إلى مرارا أنني أسمع أصواتهم وضحكاتهم، بل ودعوة طفليّ لي لمشاركتهما لعبتهما كما كنت أفعل في الزمن السعيد.. وشكوت حالي لطبيبي فطمأنني إلى أنها حالة مؤقتة وسوف تذهب إلى حال سبيلها.. لكنها لم تذهب ومازلت أرى أطياف الأحباء في البيت الحالي، وأكاد أحدثهم ويحدثونني.. ومازالت نوبة الخواطر تفاجئني في كل حين في البيت أو الشارع أو العمل، فتغيبني عن الواقع المحيط بي لفترة تطول أو تقصر، أستغفر الله بعدها وأستعيذ به من الشيطان الرجيم.. وأسرع إلى المسجد لأحتمي به.. أو للصلاة في البيت أو العمل، وفيما عدا ذلك فأنا لا أكاد أخرج من البيت ولا أستجيب لدعوات أختي لزيارتها، وابتعدت عن الأصدقاء والجميع، فهل تراني أمضي في طريق الجنون يا سيدي.

وبماذا تنصحني لكي أتفاداه وأتحمل أقداري وحياتي. إن الطبيب يعيب عليّ حزني على الراحلين ويحذرني من الهزال الذي أعانيه، حتى الآن حيث نقص وزني منذ وقوع الحادث الذي غير كل حياتي 16 كيلو جراما، ويتهمني بأنني أنتحر ببطء.. وأوهم نفسي أنني لا أحاول الانتحار لحرمته الدينية، وفي نفس الوقت أمتنع عن الأكل لكي أهزل وأضعف وأصل إلى غايتي دون حرمة دينية، وأنا أقسم لك أني لا أتعمد ذلك ولا أقصده، لكني قد فقدت بالفعل شهيتى للطعام، وأعجز أحيانا عن ابتلاع لقمة واحدة طوال اليوم، ولولا إلحاح أختي وشقيقي والعصائر والحقن والفيتامينات لعجزت عن الحركة. فكيف أكون راغبا في الانتحار، كما يقول الطبيب وأقبل في الوقت نفسه على تناول العلاج والفيتامينات والعصائر؟ وكيف يتهمني بالرغبة في الانتحار.. وأنا لا أملك الشجاعة الكافية للإقدام عليه.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

في بعض الأحيان تكون الشجاعة مطلوبة بشدة للاستمرار في الحياة وتحمل أقدارنا فيها وليس للانتحار.

فالانتحار ليس شجاعة، وإنما هو جبن وهروب ونكوص عن تحمل أقدار الحياة، وأنت يا صديقي لا تنقصك الشجاعة.. ولا تفتقد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر خيره وشره، ولك من عمق إيمانك بربك وتسليمك بقضائه وقدره ما سوف يعينك بإذن الله على الصمود لهذا الابتلاء، الذي ابتلى بمثله من قبل أولو العزم من الأنبياء والصابرين المحتسبين.

فإذا كانت الخواطر السوداء تهاجمك من حين إلى آخر فتذهلك عمن حولك، فلأنك مازلت في حالة الضعف النفسي من أثر هذه الفاجعة التي تئن من وطأتها الجبال،

والإنسان في حالة ضعفه يكون نهبا لمثل هذه الأفكار السوداوية والوساوس القهرية، التي تلح عليه وتفسد عليه أمانه وسلامه.

غير أن للوسواس القهري بالرغم من وطأته علاجا مأمونا لدى الطبيب النفسي.. وخير ما يعينك عليه إلى جانب العقاقير التي ينصحك بها الطبيب.. العبادة التي هي درعنا السرية ضد الآلام، والتسليم بما جرى والتعلق برحمة الله في أن تنقذنا مما نكابده ونعانيه وتفتح أمامنا أبواب الأمل في غد يمسح عنا كل الأحزان.. أو يطفئ على الأقل أوارها المشتعل، ويحولها إلى حزن رفيق لا يحول بيننا وبين التواصل مع الحياة والقدرة على الاستمرار..

فأما الحزن الذي يعيبه عليك طبيبك من باب الإشفاق عليك وحثك على الاهتمام بنفسك وتجاوز أحزانك، فلقد استسلم له من قبل سيدنا يعقوب حين حزن على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن، ولم ينكره عليه ربه فإذا كان الحزن على فقد طفليك وزوجتك وأمك قد هزمك ونحل منه جسمك، فلمن يكون الحزن إذن إن لم يكن لأمثالك من المبتلين.. غير أن عافية الله أوسع لك ورحمته سوف تدركك وتخفف عنك أحزانك وتعوضك عمن فقدت بإذن الله خير الجزاء.

وأما تساؤلك عن الذنب الذي جنيته واستحققت عليه هذا العقاب المشدد، فلم يجر ما جرى لذنب جنيته أو إثم افترقته، ولم يكن ربك حتى ولو كنت من أهل الخطايا ليأخذ الأبرياء بذنوب المذنبين، وإنما أقدار مقدورة ومواعيد مسجلة في اللوح المسطور من قبل المجيء إلى الحياة، ولقد جاء في تفسير الطبري للآية 39 من سورة الرعد: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} أنه قيل إن الله سبحانه وتعالى يقدر أمر السنة في ليلة القدر فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فذلك ثابت لا يتغير فكيف تفتش إذن في حياتك وماضيك عن مبررات لما كان من الأصل كتابا موقوتا وأنت الرجل المؤمن الذي لم يقترف حراما ولم يجن على أحد وعاش حياة شريفة فاضلة؟ أو لسنا نسأل الله اللطف في القضاء.. ولا نسأله رده لأنه لا راد له حين يجيء؟.

لقد مسك الضر يا سيدي كما مس سيدنا أيوب من قبلك ومس الأنبياء والمبتلين في كل زمان ومكان، فاهتف كما هتف أيوب {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ} وجاء في تفسير هاتين الآيتين في المنتخب في تفسير القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد أجابه إلى ما كان يرجوه، فرفع عنه الضر - أي المرض - ووهبه من الأبناء بقدر من ماتوا من أبنائه وزاده مثلهم رحمة به من فضله وتذكيرا لغيره؛ لكي يصبروا كما صبر ويطمعوا في رحمة ربهم كما طمع.

فأصبر يا صديقي كما صبر المبتلون من قبلك، وأخرج من عزلتك وتشاغل عن أحزانك وخواطرك المقلقة وهواجسك بالتماس الصحبة والسلوى لدى الأهل الأقربين والأصدقاء، وحبذا لو استطعت أن تستبدل بمسكنك الحالي الذي تطوف بك فيه أطياف الأعزاء الراحلين آخر بعيدا عن موطن الذكريات والأحزان، فنحن

نحتاج في بعض الأحيان إلى أن نبتعد عن كل ما يؤجج لهيب أحزاننا، كلما بدا لنا أنها توشك على الخمود.

ولابد من أن تفكر جديا من الآن في تجديد حياتك، وخلق أسباب جديدة تدعوك للتواصل مع الحياة.

ومن المحزن حقا أن تكون بعض الفواجع الإنسانية محررة للإنسان من كل خوف بعدها.. ولقد قيل لإعرابية مات ابنها ما كان أحسن عزائك فقالت: إن فقدي إياه قد آمني كل فقد سواه، وأن مصيبتي به قد هونت على كل المصائب بعده.

فتمسك بالحياة التي لا مفر لنا من أن نحياها سعدنا فيها أم شقينا، وأعن نفسك على تجاوز المحنة بالأمل الذي لا يخيب في رحمة ربك، وفي الغد الآتي الذي يعوضك فيه ربك بإذن الله عن كل الأحزان، والله المستعان على كل أمر عسير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التاج الأبيض

أنا سيدة متزوجة منذ عشرين عاما وفي الثانية والأربعين من عمري، وأحمل مؤهلا فوق المتوسط، وأواصل دراستي العليا حاليا، ولي ثلاثة أبناء وبنت تدرس في إحدى كليات القمة وأصغرهم في الصف الثاني الإعدادي، وكلهم والحمد لله متفوقون، وفي بداية حياتي تقدم لي كثيرون، ولكنني لم أقبل بإحدهم إلى أن دق بابنا زوجي الحالي لخطبتي وتمنيت من كل قلبي أن تتم هذه الخطبة لأنه جذبني بشخصيته حيث إنه إنسان مثقف ورزين ومحترم.

وزوجي ياسيدي خريج إحدى كليات التجارة قسم إدارة الأعمال، وكان يعمل بإحدى شركات البترول الأجنبية، في حين أنني موظفة بإحدى الوزارات، وزوجي يحب ويعشق عمله وكثيرا ما دعاه رؤساؤه الأجانب لحفلات العمل التي تقام من حين لآخر.

وقد حضرت معه بعض الحفلات ولمست كيف يقدرونه، ونظراً لتفانيه في عمله فقد تم اختياره خمس سنوات متتالية ليكون الموظف المثالي في الشركة، ومنح جوائز قيمة في كل مرة، ورقي إلى عدة مناصب حتى وصل إلى منصب مدير لإحدى الإدارات، ونقل إلى القاهرة، وأصبح مكتبه في شقة فاخرة للمقابلات وعقد الصفقات، وكان أول مصري يشغل هذا المنصب الحساس، ونال إعجاب البعض وحسد الآخرين، ولكنه وبفضل الله تعالى أثبت كفاءة عالية.

ومنذ فترة الخطبة وحتى الآن فهو دارس لنفسيتي بعمق وكأن ما يدور في نفسي كتاب يقرأه، وقد أحببت في زوجي ذكاءه وثقافته وضميره اليقظ، حيث كان يخاف الله في تعاملاته، ويرفض وبكل إصرار الهدايا والعروض التي تقدم له من الشركات المتعاونة معه.

وبعد عدة سنوات انتهى عقد الشركة بمصر، وحصل على مكافأة كبيرة أودعها إحدى شركات توظيف الأموال وعمل بالتجارة وتكبد للأسف خسائر كبيرة، ولأنه يجيد اللغة الإنجليزية فقد اتجه إلى مجال التدريس والتحق بالعمل بإحدى المدارس، والمشكلة ليست في المادة ولا في العلاقة الخاصة بيننا فهي على أكمل وجه والحمد لله.

وإنما المشكلة يا سيدى كامنة في التليفون! فمنذ ثلاث سنوات كانت الساعة الواحدة صباحا حين سمعت جرس التليفون ورد زوجي وراح يتحدث بصوت هامس، وبعد ذلك أخذ التليفون وأغلق عليه إحدى الحجرات لمدة ساعة تقريبا.

وتكررت هذه الاتصالات بعد الواحدة من صباح كل يوم تقريبا وتستمر نحو الساعة أو أكثر، ومازالت تتكرر وحتى كتابة رسالتي هذه، وصل عدد السيدات اللاتي يتصلن به إلى خمس، منهن ثلاث سيدات وفتاتان إحداهما عمرها حوالي سبعة عشر عاما!.

وقد عرفت عددهن من تمييز أصواتهن، وتحدثت إحدى الفتاتين في عدم وجوده، وقلت لها إنه قارب الخمسين من عمره وأب لأربعة أبناء، وقد كسا شعره تاج أبيض فردت بكل بجاحة إنني معجبة به وبشعره الأبيض ووضعت السماعة.

لقد طعنت في مشاعري وأنوثتي، وأنا أحب زوجي بجنون وأطيعه مهما تكن أوامره، وأريد أن أحتفظ بزوجي ولا أريد إثارة المشاكل حتى لا أفقده إلى الأبد.. فماذا أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ولماذا تلومين ابنة السابعة عشرة وحدها على نزقها وبجاحتها.. ولا تلومين زوجك المحبوب الذي يلاحقها «بتاجه الأبيض» ويغريها بالاتصال به.. وإنشاء علاقة معه!.

ولماذا لا تلومينه على عدم احترامه لمشاعرك كزوجة وأنثى وشريكة حياة، وهو يتلقى الاتصالات التليفونية في بيته في الواحدة صباحا، ويرد عليها بصوت هامس في حجرة مغلقة لمدة لا تقل عن الساعة.

إنه هو المطالب قبل غيره باحترام مشاعرك وعدم إثارة غيرتك بمثل هذه التصرفات الصبيانية وبالإخلاص لك، والاكتفاء بك دون غيرك من النساء والفتيات.. إذ ليس من الرجولة أن يتبجح هو بهذه العلاقات والاتصالات تحت أنظارك، وهو آمن من كل حساب!.

ويبدو أنه كبعض الرجال في منتصف العمر تراوده هواجس هذه المرحلة، ويريد أن يثبت لنفسه أنه مازال «الشاب الذي كان».. أو يبدو أنه قد عجز عن إثباته ذاته في مجال عمله الجديد بعد تاريخ مجيد في العمل بشركات البترول.. ويريد أن يثبت ذاته في مجال العلاقات النسائية ليعوض فشله المادي، ويشعر بأنه مازال يحقق المزيد من «الانتصارات» كما كان يفعل أيام النجاح والتألق، وكل ذلك ليس مما يليق بمن كان أبا لأربعة أبناء وتدرس كبرى بناته بالجامعة، ولا بمن كان زوجا لسيدة تحبه وتحرص عليه، حتى تكاد تغفر له كل حماقاته كما تفعلين الآن.

على أية حال فإنك تستطيعين لفت نظره إلى ضرورة الابتعاد بعبثه عن مجال البيت والأسرة، إذا كان عاجزا عن الكف عنه لكيلا يؤثر ذلك على معنويات الأبناء، ويهز مثلهم العليا ورمز الأب في مخيلاتهم، لأن السلوك المعيب لابد من أن يفتضح أمره ذات يوم مهما تخفى به صاحبه.

كما تستطيعين أيضا بالحوار الهادئ معه أشعاره بأن مثل هذا العبث لا يليق به ولا يثبت شيئا ولا يضيف إليه أية قيمة ذاتية.. لأن أي رجل في الوجود يستطيع إذا رغب أن يجد فتاة عابثة أو سيدة مستهترة تشار كه عبثه، وتتبادل معه الأحاديث الهامسة بعد منتصف الليل، ذلك أن العبث سهل وميسور.. أما الصعب حقا والذي

يمثله تقوّم معادن الرجال فهى الاستقامة الشخصية والترفع عن الصغائر والتعفف، واحترام الذات وحقوق الغير..

وفي كل الأحوال.. فإن الأمر يتطلب منك أن تتعاملي معه بحكمة الأم التي تأمل دائما في انصلاح أحوال ابنها ولا تدخر جهدا لإعانته على ذلك، وفي الوقت نفسه، فإنها لا تتخلى عنه ابدا مهما تعثرت خطواته أو أوغل لبعض الوقت في الطريق الخاطئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرات المحرومة!

أتابع قراءة بابك باهتمام.. ليس فقط لمجرد الاستفادة بتجارب الآخرين وخبرتهم، وإنما أيضا على أمل أن أقرأ فيه مشكلة مشابهة لمشكلتي.. حتى لا أضطر للكتابة، عما يحرجني الإشارة إليه وأتكتمه عن الجميع.. لكني لم أجد للأسف حالة مشابهة لحالتي، ولم يعد أمامي مفر من الكتابة ومعاناة الحرج، فأنا سيدة في السابعة والعشرين من عمري، حباني الله سبحانه وتعالى بنعمة الجمال والذكاء، وتفوقت في دراستي والتحقت بإحدى كليات القمة.

وتلقيت خلال دراستي الجامعية عروضا كثيرة بالزواج من زملاء يكبرونني في السن ومن معيدين بالكلية.. ولم أستجب لأي منها.. ولاحظت خلال مرحلة الدراسة أن هناك زميلا منطويا على نفسه وقليل الأصدقاء، يلاحقني بنظراته المحرومة الصامتة دون أن يقترب مني أو يحاول الحديث معي، وظل هذا الزميل يركز عليّ نظراته هذه حتى بدأت أشعر بأنها تراقبني طوال الوقت، وفي السنة النهائية تشجع زميلي وصارحني بحبه، وقال لي إنه لن يقوى على مواصلة الحياة بدوني، وبلا تردد وجدتني أنجذب إليه وأشعر بأهميتي بالنسبة له.. واستشعر صدق مشاعره، وبدأ ارتباطنا في السنة الأخيرة من دراستنا الجامعية.

وبالرغم من ظروفنا المادية الصعبة عقب التخرج فلقد تزوجنا على الفور.. ولم تؤثر بساطة الشقة التي أقمنا بها ولا صعوبة الحالة المعيشية في البداية على إحساسنا بالسعادة واجتماع الشمل. شيء واحد فقط أثار قلقي وتساؤلاتي.. هو أن زوجي راح ومنذ الليلة الأولى لنا معا كزوجين يبيت وحيدا على الأريكة الموضوعة في الصالة، وبعد يوم طويل نتبادل فيه الحب والاحترام والمعاملة الطيبة الرقيقة والاهتمام يعانقني زوجي معانقة أخوية، ويتركني لأنام ثم أستيقظ في الصباح فأجده نائما فوق الأريكة.. ولا أدري ما السبب.. ولا أجرؤ على سؤاله عنه ويمنعني حيائي من معاتبته بهذا الشأن.

وبعد عدة شهور استجمعت شجاعتي وافتعلت معه مشكلة تافهة، ثم تعاتبنا بعدها فواجهته بما يحيرني فيه، وفوجئت به يرتبك ويتضرج وجهه بالاحمرار حتى ندمت على إحراجه وأشفقت عليه.. ثم راح يعتذر لي عما أزعجني.. ويعدني بأن يتجنبه. وسعدت بذلك واعتبرت معاناتي قد انتهت، وبدأ زوجي بالفعل يهجر الأريكة وينام إلى جواري، ولكن كما ينام الصغير بين أحضان أمه.. في وداعة وبراءة وإحساس بالأمان ولا شيء آخر.

وحاولت أن أبحث في طفولة زوجي الحبيب عن تفسير لذلك، على الرغم من أنه قد نشأ في أسرة متماسكة مترابطة ومتحابة.. وبحذر شديد وحرص على ألا أجرح مشاعر زوجي أو كرامته، بدأت أسأل والدته أمامه عن أحواله وهو طفل صغير لعلي أجد خيطا يمكن البدء به في طريق العلاج.. فلم أجد فيما سمعته منها أي شيء يسهم في حل المشكلة.

فكتمت سري عن الجميع وتعلقت بالأمل في المستقبل، ورضيت من الحياة بالعشرة الطيبة والمعاملة الرقيقة وطوفان الحب الذي يغرقني به زوجي، وبتعلقه الشديد بي كالطفل الذي يتعلق بأمه ولا يقوى على فراقها، وشعرت بأنني أمه بالفعل ولست زوجته بالرغم من يكبرني بثلاث سنوات.

ومضى العامان الأول والثاني من الزواج ونحن على هذه الحالة.. وألححت على زوجي في عرض نفسه على الطبيب النفسي عسى أن يساعدنا على تجاوز المشكلة، فرفض هو في البداية إلى أن هددته بالانفصال عنه، وذهبنا معا إلى الطبيب.. ولم يتوصل الطبيب بعد جلسات عديدة لسبب الحقيقي لمشكلة زوجي.. حتى سلمت أنا شخصيا باليأس، وبدأت أحاول التكيف مع حياتي على ماهي عليه، وفكرت كوسيلة للتشاغل عن أفكاري وأحزاني في أن أعمل.

وعملت بإحدى الشركات فوجدت نظرات الإعجاب تلاحقني.. ثم ظهر مدير الشركة في الصورة وأبدى اهتماما خاصا بي، وراح يشعرني برغبته في الارتباط بي. ويبدى إعجابه بالقدر الكبير من الحنان الذي يستشعره في شخصيتي.. وأزعجتنى كلمة «الحنان» هذه أكثر مما أزعجتني محاولاته معي؛ لأنني أثق في نفسي بالرغم من معاناتي، وتساءلت: ماذا في شخصيتي يشعر الآخرين «بالحنان الأمومى» هذا مع أنني لم أنجب ولم أعرف الأمومة؟

ولولا نشأتي في بيت أقيم على دعائم الإيمان والتقوى وخشية الله لضعفت واستجبت لمحاولات من حولي، في النهاية اضطررت إلى ترك العمل بهذه الشركة، لكي أسد على الآخرين الطريق الخاطئ، وانتقلت للعمل في شركة أخرى فلم يتغير الحال كثيرا.

والآن ياسيدي فقد مضت ست سنوات على زواجي ومازلت أعيش حياتي الزوجية «البريئة».. منذ ليلتها الأولى ومازلت أحب زوجي للغاية، وأحب حبه لي، وفي كثير من الأحيان يتعلق زوجي برقبتي ويبكي كالأطفال، ويقول لي إنني لو ابتعدت عنه أو تركته فإنه سيموت لا محالة، وأنه لا يفكر في شيء وهو في عمله سوى في العودة لأحضاني الدافئة. وأنا لا أرغب في هجره ولا في تركه لأنني أحبه، لكني بت أخشى على نفسي من الفتنة ولم أعد قادرة على مواصلة الاحتمال، وأريد أن أصبح أما حقيقية لطفل من لحمي ودمي.. فهل أتر كه وأطلب الطلاق مع ما سيكون لذلك من عواقب وخيمة على زوجي الحبيب؟.. أم هل أترك نفسي للتيار يجرفني إلى ما يغضب ربي وأنا التي حرصت العمر كله على إرضائه؟ أم هل أصبر إلى نهاية العمر وأسلم أمري إلى الله؟

إنني أرغب في الاختيار الأخير لكن كيف السبيل إليه.. وماذا تقول لي، وهل هناك حل آخر لمشكلتي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أشاركك الحرج ياسيدتي في الحديث عن هذه المشكلة الشائكة، لكنه ليس من الحكمة أن نتجاهل بعض مشاكلنا تحرجا من حساسيتها، ولا أن ندفن رؤوسنا في الرمال ظنا منا أن من لا نراه لا يرانا كما يتعامل البعض مع مشاكلهم. والحق أن المشكلة التي تثيرينها من أعقد المشاكل الإنسانية وأكثرها تأثيرا على الأسرة والعلاقات العائلية.. ولهذا فإني أعتقد أنك وزوجك لم تتعاملا معها بالجدية الكافية حتى الآن، فإذا كنت ألتمس لك بعض العذر في ذلك من حيائك وتحرجك من الإلحاح عليه بالتعامل الجاد معها، فإن زوجك لا عذر له. بالرغم من إشفاقي على ظروفه المؤلمة - في ألا يتعامل مع مشكلته بالاهتمام الكافي، وهو الرجل الذي لا يعيبه طلب العلاج المشكلة يعانيها، وإنما يعيبه بالتأكيد أن يتراخى في ذلك أو يتقاعس عنه.

وعلى أية حال فإن الأمر يتطلب أن تبدآ من جديد البداية السليمة لطلب العلاج لهذه المشكلة.. على أن تكون الخطوة الأولى على طريقه هي استشارة طبيب متخصص في أمراض الذكورة، فإذا أثبتت الفحوص أنه ليست هناك أسباب عضوية لحالة زوجك، فإن الخطوة الثانية هي استشارة الطبيب النفسي من جديد، والصبر على طول العلاج وجلسات التحليل النفسي مهما تعددت، ذلك أن لانعدام الرغبة الحسية أو نقصها أسبابا نفسية عديدة.. منها ما يراه عالم النفس الشهير فرويد من أن الرجل قد يفشل أحيانا في الجمع بين مشاعر الحب ومشاعر الرغبة تجاه نفس المرأة، ومنها في حالات أخرى القلق المزمن والاكتئاب وشعور المرء بالدونية تجاه شريكته أو شعوره بأنه غير مرغوب منها.. وفي بعض الحالات الأخرى قد يكون انعدام الرغبة تعبيرا عن العداء النفسي للشريك، أو الخوف منه، أو العجز عن حل الصراع الأوديبي حسب تعبير فرويد بين تقديس المرأة التي تمثل للرجل رمز الأم.. وبين الرغبة الحسية فيها..

وفي كل الأحوال، فلابد من الصبر على العلاج النفسي الطويل إلى أن يؤتي ثماره المرجوة، فإذا استعصت الحالة بعد ذلك على العلاج فلا مفر من مواجهة الحقيقة في النهاية مهما تكن مرارة العواقب، والقاعدة الشرعية هي دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، والضرر الأكبر هنا هو خطر تعرضك للفتنة وانهيار مقاومتك وسقوطك لا قدر الله في بئر الخطيئة... أما الضرر الأصغر فهو تكبد زوجك لألم فراقك ومعاناتك أنت آلام هذا الفراق بعض الوقت.

وآلام البتر في بعض الأحيان تنقذ بقية الجسم من الهلاك، ومرارة الانفصال بالنسبة لزوجك العاشق، أهون في النهاية من أن يكابد العذاب الأكبر إذا ضعفت مقاومتك ذات يوم وغلبك التيار على أمرك.. وقديما قال أحد الحكماء: إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك.

وعجز أحد طرفي العلاقة الزوجية عن تلبية احتياجات الطرف الآخر العاطفية والنفسية نوع من عدم الموافقة وضرب من العذاب المرير، يذكرنا بعذاب فرانشيسكا وحبيبها في الكوميديا الإيطالية للشاعر الإيطالي العظيم دانتي، فلقد صور دانتي في أحد منازل الجحيم فرنشيسكا العاشقة هذه وحبيبها وقد تواجها، وكل منهما يشتهي أن يقبل الآخر فتتلاعب بهما رياح الجحيم وتقربهما من

بعضهما البعض، فإذا خيل إليهما أنهما قد أوشكا في النهاية على أن نالا القبلة المحرمة باعدت بينهما الرياح. ثم رجعت وقربت بينهما من جديد، وتكرر الأمل في الارتواء وتكرر الحرمان منه في اللحظة الأخيرة وهكذا إلى ما لا نهاية، ولا هما ينالان ما يشتهيان ولا هما ييأسان من الأمل المحروم أبدا.

فأية حياة هذه ياسيدتي تستطيعين احتمالها إلى نهاية العمر، وأنت في أوج شبابك وجمالك ونظرات الإعجاب ونداءات الإغراء تحيط بك من كل جانب؟

وهبك استطعت الصبر على نفسك بضعة شهور أخرى، فمن يضمن لك القدرة على الصبر على مكابدة الحرمان بقية العمر.. أو القدرة على الصمود في وجه الإغراء والغواية إلى النهاية؟ لقد شبه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذا الحال، معلقا على فارق السن الكبير بين الزوجين بقوله مامعناه:

- النار تندلع.. والماء ينقطع!

بمعنى أن نار الرغبة تندلع عند الشباب.. فلا يسعفها المشيب بإطفاء الحريق بسبب انقطاع الماء عنده. وكل ذلك مما يعرض المحروم للفتنة ويفتح أمامه أبواب الغواية.

إنني أقدر لك حبك لزوجكِ وإخلاصكِ له ومحافظتكِ على كرامته ومشاعره وتمسككِ بقيمكِ الدينية والأخلاقية بالرغم من حرمانكِ المؤلم.. وأتفهم كذلك معاناة هذا الشاب الطيب أعانه الله على ظروفه، كما أفهم حبه لك.. وتعلقه الأوديبي الشديد بك، لكنه ليس من العدل أن تضعي نفسك بين خيارين كلاهما مُرّ وهما الحرمان أو تنكب الطريق القويم، والانجراف إلى هاوية الخطيئة.

فابدئي على الفور العلاج بجدية وحماس من جديد لإبراء الذمة قبل اتخاذ القرار المصيري.. ثم اتخذي في حالة فشل العلاج وانقطاع الأمل فيه قرارك بشأن حياتك ومستقبلك بلا تردد، مهما يكن هذا القرار مؤلما للطرفين أو قاسيا، خاصة أنك لم تنجبي حتى الآن، ولن يكون لهذا القرار من ضحايا إلا زوجك المحكوم بأقداره المحزنة للأسف.. فضلا عن أنه من حقكِ في النهاية أن تمارسي الأمومة الحقيقية ذات يوم، إذا فشلت كل الجهود، ولم يعد هناك مفرٌّ من آلام الجراحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلاصة التجربة

أنا شاب في الرابعة والثلاثين من عمري، نشأت بين أب موظف وأم ربة منزل وأربعة من الإخوة، وحرص أبي على غرس المبادئ والقيم النبيلة فينا كالصدق مع النفس ومع الآخرين إلى جانب البساطة والواقعية وقوة الإرادة، ولقد بذلت والدتي قصارى جهدها في سبيل إسعاد أبنائها، فكان عطاؤها لنا كبيرا، وكانت نعم السند والمعين لأبي خلال رحلة حياته.

وتبدأ قصتي عندما تخرجت في الجامعة في إحدى الكليات النظرية ثم سافرت إلى الخارج لبضع سنين، وخلال تلك الفترة اجتهد أبي وأمي في البحث لي عن شريكة حياتي، وخلال إحدى إجازاتي تم عقد قراني على إحدى الفتيات، ثم سافرت وبعد عام آخر تم الزفاف وقررت الاستقرار بمصر. وخلال سنوات زواجي الأولى ذقت الأمرين في حياتي الزوجية، وتعرضت حياتي مع زوجتي أكثر من مرة للانهيار، وكان لوالد زوجتي النصيب الأكبر في تقويض دعائم أسرتي الصغيرة، إلا أنني تحليت بالصبر وحسن التقدير.

والآن بعد أن اجتزت تلك الفترة العصيبة من حياتي، فإنني أجد زوجتي قد هداها الله وأصبحت حريصة على بيتها وتبذل كل ما في وسعها لإرضائي وإسعادي، ومنّ عليّ الله بالمال الوفير الذي أنفقه في رعاية أسرتي الصغيرة، ومنّ عليّ بشقة لم أكن أحلم بها، بل وأكثر من ذلك فقد تعثر والد زوجتي - سامحه الله - كثيرا ولم يجد سواي لإخراجه من عثراته، وأجدني بوازع من مبادئي وأخلاقي لا أستطيع التخلي عمن يطلب المساعدة.

ولقرائك الأعزاء أسوق بعض نصائحي، التي استخلصتها من تجربتي المتواضعة في محاولة إنجاح حياتي الزوجية، وهي:

- على الزوجين أن يتحليا دائما بالصبر وحسن التقدير.

- على الزوج أن يكون حريصا على ألا تخرج زوجته من منزله إذا اختلفا طالما ظلت الرابطة الزوجية قائمة، لأن ذلك يؤدي إلى احتواء الموقف وعدم تدخل الأهل، ولابد أن يدرك كلاهما أن الحياة الزوجية سر لا ينبغي البوح به لأحد، مهما تكن درجة صلته به

- ضرورة ألا يتسرع الزوجان في قرار الانفصال، وأن يعيدا النظر فيه مرات ومرات، لأن الخلاف بين الزوجين ليس نهاية العالم، ولأن هناك كثيرا من الخيارات يمكن أن تكون بديلا عن الطلاق.

- إن الحياة الزوجية ليس فيها زوج ناجح وزوجة فاشلة أو العكس، ولكن هناك أسرة ناجحة وأسرة فاشلة، ونجاح أي منهما هو نجاح للآخر.

- لا بد أن يضحي كل من الزوجين بجهده وماله ووقته ومشاعره وكل ما يملك، ولا يدخر جهدا لإسعاد شريكه.

- لابد أن يعرف كل طرف أن عليه التزامات يجب الوفاء بها قبل المطالبة بحقوقه، لأن المطالبة بالحق دون أداء الواجب، أو قبل أدائه تضعف حجة المطالب وقد تؤدي إلى إسقاط حقوقه.

هذه هي خلاصة تجربتي المتواضعة في مقاومة الفشل في حياة الزوجية وتحقيق النجاح.. أرجو أن يجد فيها غيري ما يفيده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

بالجهد المتواصل يمكن إزكاء النار من الصخر، هكذا قال الفيلسوف الألماني نيتشه.. وهكذا ينبغي أيضا أن يؤمن كل من يرغب صادقاً في إنجاح حياته الزوجية، وتخطي الصعاب التي تهددها بالفشل والانهيار.. وخلاصة التجربة الحقيقية هي أنه لا بد من الاستمرار في هذا الجهد المتواصل طوال الحياة الزوجية وعدم التسليم باليأس من النجاح في فترات المشاكل والعثرات وعدم الاستنامة في الوقت نفسه إلى الظواهر الخادعة، التي تخفي النار تحت الرماد إلى أن يفاجأ بها الغافلون لهيبا مشتعلا.

وصدق الرغبة في نجاح الحياة الزوجية واستمرارها عامل جوهري في تحقيق ذلك والاستعداد لبذل كل الجهد الممكن لتحقيق هذه الغاية.. عامل أكثر أهمية وخطورة.. واتحاد الأهداف بين الزوجين وانعقاد نيتهما معا على تذليل الصعاب والمحافظة على كيان الأسرة كفيل دائما بتخطي أصعب العقبات..

ولقد ذكرتني رسالتك بكلمة ساخرة لأحد كبار الأدباء، يقول فيها إنه إذا أرادت الزوجة أن تنال السعادة مع زوجها، فعليها أن تفهمه كل الفهم، وأن تحبه بعض الحب، أما إذا أراد الزوج أن ينال السعادة مع زوجته فعليه أن يحبها كل الحب، وأن يكف نهائيا عن محاولة فهمها!

وإذا نحينا عنصر السخرية البادية في هذه الكلمة جانبا، فإنها تكشف لنا عن حقيقة موضوعية هي أن الحب وحده إذا لم يقترن بالفهم وحسن التقدير والتسامح والصبر والإصرار على النجاح، فإنه قد لا ينجح في إنقاذ السفينة من الغرق.

والحب دائما قرين التسامح مع المحبوب والصبر عليه والتجاوز عن هناته وأخطائه الصغيرة.. والصبر وطول الأناة من أهم أسلحة حماية الحياة الزوجية من الانهيار.

يبقى بعد ذلك أن نعيد التذكير بالقواعد العامة التي اتفق عليها علماء الاجتماع وخبراء الشؤون الأسرية لضمان حياة زوجية ناجحة وهي: حسن اختيار الشريك من البداية، وسلوك الزوجين سلوكا نفسيا معتدلا أحدهما تجاه الآخر وكل منهما تجاه الحياة بصفة عامة، وحل مشكلة الأبوة والأمومة بطريقة ترضي الطرفين معا، وحياة حسية قوية ومنسجمة.

فضلا عن عامل التوفيق الإلهي الذي يجب كل هذه العوامل ويذلل أصعب العقبات، ولو بدا للغير أنه من رابع المستحيلات تذليلها أو اجتيازها.. وشكرا لك على رسالتك ورغبتك في أن يستفيد الآخرون بخلاصة تجربتك في التغلب على خطر الفشل. وتحقيق النجاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختبار القوة!

أكتب إليك لأعرض عليك قصتي فأنا رجل أقترب من الستين من العمر، أنهيت تعليمي، ثم عملت مع أبي في تجارته وتعلمت منه فنونها وأسرارها، وتلقيت عنه دروس تجربته، وكان من أهمها أنني ينبغي أن أكون قويا دائما، وألا أضعف أمام الآخرين، وإلا أكلتني الوحوش، فالدنيا في نظره لا تضم سوى وحوش ضارية وحملان وديعة، ولكل إنسان أن يختار الفئة التي يريد الانتماء إليها.

والحق أنني قد تعلمت الدرس جيدا.. ونلت دائما رضا أبي ومباركته لخطواتي.. وحرصت دائما على ألا أكون في موقف الضعيف إزاء أي طرف.. كما تعلمت أيضا ألا أسمح لما تسمونه أنتم بالضعف البشري.. أو المشاعر العاطفية بأن تؤثر على قراراتي، أو تدفعني للتنازل عن شيء من حقي الحصول عليه بالصلابة والقوة.

وعلى هذا النحو مضت حياتي.. وتزوجت في حياة أبي من ابنة أحد معارفه، زواجا تقليديا على أساس المستوى الاجتماعي والمادي، وعشت حياة هادئة في مجملها مع زوجتي بعد فترة قصيرة من الاضطراب واختبارات القوة في البداية، إذ شهدت حياتنا في بداية الزواج بعض المتاعب.

لكن طبيعة زوجتي التي تميل للمسالمة والرضا بالأمر الواقع قد ساعدتنا على تجاوزها.. وانتظمت حياتنا بعد ذلك وأنجبنا ثلاثة أطفال تباعا، فكرست حياتها لهم ولبيتها، وعرفت عني أنني لا أتأثر بالدموع.. ولا استجيب لأي ضغط لكي أفعل ما لا أريد أن أفعله، سواء من جانبها أو من جانب أهلها أو حتى من جانب أبي، الذي حاولت هي في البداية أن تستعين به عليّ.

كما عرفت عني أيضا أنني وإن كنت غير بخيل إلا أنني لا أحب أن أنثر النقود في الهواء، ولا أن أضع القرش في غير موضعه.

ورحل أبي عن الحياة ورغبت أمي وشقيقاتي البنات في أن تستمر تجارته كما هي على أن أتولى إدارتها، وأعطي كلا منهن عائدا منتظما، حسب نصيبها في التجارة لثقتهن في أمانتي وكراهيتي للحرام.. وكل منطقهن في ذلك هو أنني قد لا أكون «سخيا» بالمعنى الشائع لكني في الوقت نفسه «حقاني»، وأنفر من القرش الحرام وأؤمن بأنه يجرف في طريقه المال الحلال.

ولهذا رحن يلححن عليّ أن تستمر التجارة كما هي، وأن أحصل على عائد منها بقدر نصيبي فيها مع عائد آخر مقابل الإدارة لكني تمسكت بتصفية التركة وتوزيعها على الورثة الشرعيين كل حسب نصيبه فيها، لكي أبدأ أنا تجارتي الخاصة حرا دون أي قيود، وخيرت أخواتي وأمي بين أن يعطينني نصيبي منها ويدرن هن التجارة بواسطة أحد أزواج الشقيقات، أو يقبلن ببيع ما يمكن بيعه منها وحصول كل فرد على نصيبه.. وباءت محاولاتهن جميعا لإقناعي بالعدول عن ذلك بالفشل، وتم لي ما أردت خلال العام الأول لرحيل أبي.

وانفردت وحدي بما بقى لي من تجارة أبي، ونميته واستثمرته حتى عوضت كل ما خرج منها خلال ثلاث أو أربع سنوات على الأكثر، وتحسنت ظروفي المادية كثيرا.

وواصلت طريقي في التجارة وفي الحياة بنفس منطقي الذي أشرت إليه وكبر الأبناء وهم ولد وبنتان وتقدموا في مراحل التعليم، وحين التحق ابني بالمدرسة الثانوية حاولت أن أشركه معي في العمل لكي يتلقى عني تجربتي ويستفيد من خبرتي، لكني لاحظت عدم استجابته لي بالرغم من تشددي معه وإلحاحي عليه.. فكان أن حرمته من المصروف خلال الصيف. وقلت له إن من لا يعمل لا يحق له الحصول على شيء.

وتوقعت أن تنجح هذه الطريقة معه، ولكنها للأسف زادته بعدا عني.. وتحمل صابرا الحرمان، ثم حصل على الثانوية العامة والتحق بإحدى الكليات، وسمعت في ذلك الحين أنه يشكو لأمه وشقيقته من أن مظهره لا يليق به كطالب جامعي وابن لتاجر ميسور الحال.

ورجتني أمه أن أبسط يدي معه بعض الشيء، لكني وقد تعلمت ألا أضعف أمام أحد رفضت ذلك، وأصررت على أن يعمل بالتجارة، مقابل ما يريد الحصول عليه من نقود إضافية.

ورفض هو ذلك أيضا فاستمر الحال على ماهو عليه، وبعد عامين أخرين نجح خلالهما في دراسته قالت لي زوجتى إن ابني ينكر علينا ألا تكون لنا سيارة وأنا قادر على شرائها، وأن من زملائه من هم أقل منا في المستوى المادي، ولكنهم يعيشون أفضل منا ويركبون سيارات لا بأس بها.. ويقضون الصيف في الإسكندرية فنهرتها عن الاستطراد في هذا الحديث الفارغ.. وطلبت منها أن تنصح ابنها بأن يساعدني في العمل بدلا من التفكير في هذه الترهات، فكانت النتيجة أن ازداد صمتا وبعدا بالرغم من التزامه الأدب دائما في البيت ومع الجميع وتخرج أبنائى جميعا في عامين متتاليين، وازداد عجبي حين رفض ابني العمل معي بعد التخرج، وراح يبحث عن وظيفة عن طريق إعلانات الوظائف ويقبل بالعمل كمندوب مبيعات لإحدى الشركات مقابل العمولة.. ويحمل منتجات هذه الشركة ويطوف بها على البيوت ليعرضها للبيع.. وهذا يفتح له باب مسكنه وذاك يغلقه في وجهه.. وتلك تنهره لأنه دق عليها الجرس في وقت غير ملائم وهكذا.. وكل ذلك مقابل عائد لا يزيد عن ٢٠٠ جنيه في الشهر، وتعجبت لحاله.. وانفجرت فيه.. وكدت أفقد أعصابي معه وأعتدي عليه بالضرب وهو صامت وساكن، ولا يجيب سوى بأنه يريد أن يعتمد على نفسه وتركته لحال سبيله عسى أن يسلم بعد قليل بالفشل، ويرجع إليّ طالبا العفو عنه، لكنه مضي في طريقه بإصرار عجيب وساء مظهره بغير أن أتزحزح عن موقفي منه أو أبسط يدي معه قليلا ليشتري الملابس اللائقة، وكلما التقينا مصادفة في البيت نظرت إليه في غضب، فيغض بصره ويحني رأسه ولا يتكلم ولا يطلب شيئا.

ومضى على تخرجه عام ولم يستقر بعد في عمل لائق.. ومازال يمارس عمل مندوب المبيعات مع تحسن طفيف في دخله، واختليت به وسألته عما يفعله بنفسه، وعن أسباب هذا العناد الذي يضر به وبنا، فإذا به يفجر مفاجأة جديدة في وجهي، ويقول لي إنه قد اختار أن يعتمد على نفسه بعيدا عني لأنه مرتبط منذ عامه الجامعي الثالث بفتاة من الجيران.. وعاهدها على الزواج، ويعلم جيدا أنني لن أوافق على زواجه منها لتواضع أسرتها من الناحية المادية، وإن كانت أسرة طيبة ومشهودا لها بالتدين وحسن السمعة. وعائلها موظف حكومي ولهذا فقد رأى أن يعتمد على نفسه لكي يستطيع أن يتقدم لهذه الأسرة بما يستطيع إدخاره من عمله.. وإن كان ما يرجوه مني هو ألا أتخلى عنه من الناحية الأدبية فقط، وألا أدعه يقابل والد الفتاة وحده أومع أمه لأنه لن يقبل به إلا في حضور أبيه.

وصعقت لما سمعته.. وسألته عن هذه الأسرة. وأدركت أو تصورت أنه يضغط عليّ بما يفعله بنفسه لكي أقبل بزواجه منها.. وسألت نفسي هل أضعف وأستجيب لرغبته.. أم أثبت له ولنفسي أنني لا أفشل في أي اختبار للقوة مهما يكن شأنه.. وبعد صمت ثقيل قلت له إنني بالفعل لا أقبل بزواجه من هذه الفتاة لتواضع أسرتها، ولن أساعده ماديا في الزواج مادام لا يتزوج زواجا أرضى عنه.. أما مسألة ذهابي معه إلى أسرتها فلسوف أفكر فيها وأبلغه بقراري في الوقت المناسب.

وانقطع الحديث في هذا الموضوع بعد ذلك.. وتباعدت الأوقات التي أراه أو يراني فيها.. وكلما التقينا رأيت في عينيه نظره استجداء لي.. كأنما يرجوني أن أعدل عن موقفي ولكن بلا جدوى.

وانشغلت وانشغلت الأسرة كلها بعد ذلك بخطبة الابنتين، واحدة بعد الأخرى.. ثم بزواجهما وانتقالهما إلى بيتى زوجيهما خلال العام التالي. وشهدت هذه الفترة أول خلافات شديدة بيني وبين زوجتي بسبب ما سمته هي تشددي وعدم مرونتي في المسائل المادية.. لكن الأزمة انتهت بسلام في النهاية، واستقرت كل عروس في بيت زوجها.

وخلا البيت عليّ وعلى زوجتي وهذا الابن الشارد الذي لا أراه إلا لماما، ولا يكاد يتبادل معي كلمة واحدة، ولا تفارق عيناه إذا رأني نظرة الاستجداء والاسترحام.. وعلمت من زوجتي أنه قد عين في الشركة التي بدأ فيها مندوبا للمبيعات منذ 4 سنوات، وأصبح له مرتب ثابت إلى جانب عمولة البيع.. وفاتحتني هي في رغبته في التقدم لفتاته.. ورجائه لي ألا أحرمه من ذهابي معه لطلب يدها، لأنه قد أعد كل شيء للزواج.

وتساءلت متعجبا: كيف أعد كل شيء للزواج.. وليست له شقة.. ولن يستطيع مهما يفعل أن يحصل عليها دون مساعدتي فأبلغتني أنه قد اتفق مع والد فتاته على أن يسكن في شقة من غرفتين بالدور الأرضي من البيت الذي تقيم فيه أسرة الفتاة، وذلك بعد ترضية ساكنها ببضعة آلاف من الجنيهات ليتنازل عن عقد إيجارها.

وتساءلت مرة أخرى ومن أين له بهذه الآلاف؟! فأجابتني بأن بعضها من مدخراته وبعضها من ثمن بيعها هي لبعض حليها الذهبية والبعض الآخر مساهمة من والد الفتاة نفسه.

وضقت بما سمعت وعاتبتها على تصرفها في ذهبها بغير علمي وقررت بعد تفكير أن تكون مساهمتي في زواجه برد ثمن هذا الذهب لأمه، وأنا أعلم عن يقين أنها سوف تعطيه لابنها في السر، فإذا سألتني ولماذا تفعل ذلك وأنت تعلم أنها ستعطي النقود لابني، أجبتك لكي أظل صامدا على موقفي الذي اتخذته منذ البداية، وهو ألا أساعده على هذا الزواج لأنني غير راض عنه.

ونفذت ما أردت واستجبت أخيرا لرجاء زوجتي والابنتين وزوجيهما لتحديد موعد لعقد قران ابني ومشاركتي فيه.. وذهبت معهم جميعا إلى بيت أسرة الفتاة.. وابني لاتسعه الفرحة لوجودي معهم.. وقدمني لوالد فتاته بفخر، هز مشاعري لأول مرة منذ سنوات طويلة.

وتم الزواج وانتقل إلى شقة الزوجية، وبدأت زوجتى من حين الآخر تحدثني عن بساطة بيت ابننا بالمقارنة ببيتي شقيقتيه، وعن نقص بعض الأجهزة المنزلية فيه.. كأنما تنتظر مني أن أفعل شيئا.. لكني لم أتحرك بالسرعة التي رجتها.. وكل ما فعلته هو أنني بدأت أغض الطرف عن الزيادة الطارئة في مصروف البيت بالرغم من خلوه علينا بعد زواج الأبناء، لأنني أدركت بعقلية التاجر أنها تساعد ابنها على سداد ديون الزواج، وتحاول ترطيب جفاف حياته ببعض المأكولات والهدايا والنقود.

وكلما راودتني نفسي على أن أتخلى عن عنادي وأبسط يدي معه، ترددت وقررت تأجيل ذلك إلى وقت لاحق.. إلى أن كنت ذات يوم في تجارتي أتسامر مع بعض العملاء وأشرب القهوة وأدخن، فإذا بي أشعر فجأة بالعرق يتصبب من وجهي، وبضيق شديد في التنفس ودوخة عجيبة، ثم أغيب عن الوجود وأفيق بعد ذلك لأجد نفسي في مستشفى قريب وحولي زو جتي وابنتاي وابني، والدموع في عيونهم جميعا، خاصة هذا الابن الشريد.

وأمضيت في المستشفى بضعة أيام، وقال لي الطبيب إني حسن الحظ لأن الإنذار هذه المرة كان خفيفا، حيث أعاني ضيقا بسيطا في الشرايين، والمطلوب مني أن أعتدل في حياتي وعملي والتزم بنظام غذائي خال من الدهون والملح، مع استمرار تناول الدواء.

وسألت عن التجارة وماذا جرى فيها خلال غيابي، فعرفت أن ابني قد حصل على إجازة من عمله وتفرغ لها.. وشهد له العاملان اللذان يعملان معي بالنباهة والأمانة والحرص على مالي في غيابي.

وبعد فترة راحة قصيرة رجعت إلى عملي، فسلمني ابني كل شيء واستأذنني في الانصراف للذهاب إلى عمله.. ومددت له يدي بمبلغ من المال تعويضا له عما خسره في عمله خلال انقطاعه عنه، وأنا أبتسم في وجهه ربما لأول مرة منذ

سنوات طويلة.. فإذا به ينحني على يدي الممدودة له فيقبلها.. ويترك النقود في مكانها، ويسرع بالانصراف قبل أن أنجح في إيقافه وأعترف لك بأنني ترقبت بعد ذلك أن تواصل زوجتي إلحاحها عليّ بأن أذهب معها لزيارة ابننا، حيث لم أدخل بيته منذ زواجه، لكى تجيء استجابتي لها كالعادة نتيجة لهذا الإلحاح وليس لرغبة مني، كما أحب أن يبدو الأمر إلا أن زوجتى كفت تماما عن ذلك.. كأنما قد أرادت بعد أزمتي الصحية ألا تثقل عليّ بشيء، بغير أن تدري أن هذه الأزمة نفسها قد علمتني أشياء كثيرة.

إلى أن فاجأتها ذات يوم بأن طلبت منها أن ترتدي ملابسها لكي نزور بيت ابننا لأول مرة.. فنهضت مبتهجة واصطحبتها معي إلى المسكن القريب، وقبل أن نصل إليها اشتريت بعض الفاكهة والحلوى واللحوم والدجاج والمعلبات وتوجهنا إلى بيت ابني فما أن رآنا على باب مسكنه حتى انفجرت الفرحة في وجهه، وهجم عليّ يحتضنني ويقبلني ويقبل أمه، ويحمل عنا الأشياء، وهو يصيح في اضطراب يا فلانة.. يافلانة.. بابا وماما عندنا فكدت أنسى حكاية القوة.. وضبط الأعصاب وعدم التأثر بالمشاعر وأنخرط في البكاء على حريتي.. لولا أنني تماسكت في اللحظة الأخيرة، ودخلت المسكن وجاءت زوجة ابني الحامل مهرولة وسعادة الدنيا في وجهها.. وأمضينا معهما وقتا، لم أشعر خلال سنوات العمر كله بمثل ما شعرت به فيه من سعادة وابتهاج وأمان.

والآن فأنا أريد بعد أن أطلت عليك أن أنهي هذه الرسالة بأن أروي لك باختصار ما جد على حياتي وحياة أسرتي خلال الشهور الماضية.

لقد عرفت كم كنت جافا وقاسيا مع هذا الابن.. واكتشفت أنني الوحيد الذي لم يكن يعرف عنه كم هو إنسان طيب ومتدين.. وشهم.. ومتواضع وبار بأهله ومحبوب من أسرة زوجته وأصدقائه وكل من يعرفونه.

وعرفت أيضا أنني قد قصرت في حقه، حين تركته يلاطم الحياة وحده، ويتزوج معتمدا على ساعده فقط.. وحاولت تعويض تقصيري معه.. فدفعت له مقدم شقة من ثلاث غرف في عمارة جديدة سوف يتسلمها خلال 3 أشهر واشتريت له كل ما كان ينقصه من أجهزة منزلية، حيث لم يكن عنده مثلا جهاز تليفزيون.. ووعدته بأن أشتري له أثاثا مماثلا لأثاث شقيقتيه بمجرد تسلمه الشقة، وكررت عليه عرضي بأن يعمل معي في تجارتي، مقابل نسبة من الربح أو مقابل المرتب الذي يحدده هو.. لكنه اعتذر من جديد وفضل الاستمرار في عمله بالشركة مع قبوله العمل معي في فترة إضافية في المساء لكي يخفف عني العبء.. إلى جانب العمل بدلا مني كلما احتجت إلى الراحة لمدة يوم أو يومين.

وهو الآن يقضي معي ثلاث أو أربع ساعات كل مساء.. ويبدي مهارة كبيرة في العمل.. واستمتع بالحديث معه.. وأتمنى لو طال الحديث بيننا إلى ما لا نهاية.. وقد تحسنت صحتي وصحة زوجتي كثيرا بعد هذه التطورات وبدت عليها السعادة.

وشعرت لأول مرة بدفء مشاعر ابنتيّ وزوجتي وابني، وإني لأتعجب الآن كيف حرمت نفسي من هذه المشاعر، ومن هذه الأوقات البهيجة التي أمضيها الآن مع

أفراد أسرتي ومع ابني على وجه الخصوص طوال السنين الماضية؟ وما هذا «العمل» الذي يستحق أن يحرم الإنسان من أجله نفسه من أسرته، ومن مثل هذه المتعة البريئة معها بل، وما قيمة «النقود» هذه التي يخسر الإنسان من أجلها حب ابنه أو أبنائه أو زوجته أو أهله.

لقد تعلمت الكثير والكثير خلال الفترة الماضية، وأردت أن أشركك وأشرك قراءك معي فيما تعلمته.. ذلك أنه من بين التطورات «الغريبة»، التي طرأت عليّ أخيرا أيضا أنني أصبحت من قراء هذا الباب، بعد أن كنت أسخر من زوجتي حين أراها تقرأه باهتمام وتدمع عيناها تعاطفا مع بعض أبطاله وأصدها حين تريد أن تروي لي بعض قصصه، فإذا بنا الآن نقرأه معا ونتبادل الحديث عن قصصه.. ولا يندر أن تدمع عيني لبعض شخصياته، كما حدث حين قرأت أخيرا قصة ذلك الأب المتوحش، الذي قتل طفلته الصغيرة بقسوته عليها.

فإذا أردت أن تعرف آخر هذه التطورات كذلك، فهو أنني قد أوصيت ابني حين يحم القضاء وأرحل عن الحياة ويخلفني في تجارتي. ألا يوزع التركة ويخرج شقيقتيه وأمه منها بعد إعطائهن حقوقهن، وإنما تستمر التجارة لمصلحة الجميع لكي يجدوا كلهم مردودا مستمرا للدخل، بعد أن لاحظت أن شقيقاتي قد أنفقن معظم ما حصلن عليه من ميراث أبينا، ولم يحافظن عليه لأبنائهن والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا أعرف لماذا ذكرتني رسالتك هذه بما قاله الشاعر والأديب البرازيلي باولو كويلو من أنه: نحن جميعا نحتاج إلى الحب.. إنه جزء من الطبيعة الإنسانية كالطعام والشراب والنوم.. ولقد يرقب أحدنا ذات يوم غروب الشمس الرائع وهو وحيد تماما، فيقول لنفسه لاطعم لهذا الجمال لأنه لا أحد يشاركني فيه!

وهكذا فإن الدرس الأهم الذي نتعلمه من تجربتك هو أن الإنسان لا يسعد «بقوته» وحدها في مواجهة الجميع.. وإنما يسعد بحب الآخرين له وحبه لهم وبدفء مشاعر المحيطين به.. وازدياد عدد من يعتمدون عليه في حياتهم، ويرجون له صادقين الصحة والسلامة لكي يستمر في عطائه العاطفي والمادي لهم. «فغروب الشمس الرائع» يزداد جمالا حين نرقبه، وحولنا قلوب تخفق لنا بالحب الصادق وتخفق لهم قلوبنا بمثله.

ولقد رفض الأديب والعالم اللغوي الإنجليزي صمويل جونسون قبول تقدير أحد معاصريه وإشادته المتأخرة بعمله.. لأنه كما كتب في رسالة مريرة له «قد تأخر حتى بت وحيدا، ولا أجد حولي من أحدثه عنه» مشيرا إلى رحيل زوجته وأهله عن الحياة.

ولا عجب في ذلك لأن الإنسان يحتاج دائما إلى من يهمهم أمره، ويستطيع أن يتحدث إليهم بلا حرج عما يحزنه أو يسعده.. أو يفخر به أو يخجل منه، وليس هناك من هو أقدر على مثل هذه المشاركة الوجدانية من شركاء الحياة والأبناء والأعزاء المقربين.

نعم.. يحتاج الإنسان إلى القوة المعنوية لكي تعينه على الصمود لاختبارات الأيام وتحمل الصعاب والصبر على أشواك الطريق وأحزان الحياة، ولكنه لا يحتاج إليها لكي يتصلب في مواقفه ضد الأبناء والأعزاء، ولو كانت خاطئة وقاسية، وإنما يحتاج معهم إلى الفهم والعطف والتراحم أكثر من أي شيء آخر.

ونعم أيضا يحتاج الإنسان إلى المال لكي ييسر له حياته ويلبي متطلباته الأساسية، لكنه يحتاج إليه كوسيلة لبلوغ غاية.. وليس كغاية في حد ذاته لأن الغاية المثلى التي ينبغي لكل إنسان أن يسعى إليها ويأمل فيها هي السعادة وراحة القلب والضمير، ولهذا فهو يحتاج إلى المال بقدر ما ييسر له بلوغ هذه الغاية.. فإذا تعارض سعيه إليه مع الغاية التي ينبغي للإنسان أن يكد من أجل بلوغها.. أو إذا أدت مغالاته في الحرص عليه إلى تعاسة من حوله وتعاسته بدلا من إسعاده.. فكيف يستقيم لعاقل أن يضحي بالغاية حرصا على الوسيلة؟!

لقد تعلمت ياسيدي أخيرا أن تستخدم الوسيلة الاستخدام الصحيح لها في إسعاد ابنك وأسرتك ونفسك بالتبعية، فإذا كنت قد تأخرت كثيرا في إدراك هذا الفارق الجوهري بين الغاية والوسيلة، فلقد يشفع لك أنك قد أدركته في النهاية، ولما تضع بعد الفرصة نهائيا لتصحيح الأخطاء وإسعاد الأحباء وتعويضهم عن الحرمان السابق.

وإذا حق للإنسان أن يحزن على شيء، فعلى أنه قد أضاع سنوات ثمينة من العمر، بغير أن يبذر بذور الحب والعطف في قلوب من حوله، وبغير أن ينهل هو من نبع مشاعرهم الطيبة تجاهه ويستمتع بحبهم وحنوهم عليه.. ذلك أن مانسميه نحن «بالمشاعر العاطفية»، التي كنت تفخر بعدم ضعفك سابقا أمامها.. هي بالتحديد ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية.

وهي دليل الرقي الإنساني وليست أبدا دليل ضعف أو تخاذل كما كنت تعتقد خلال إيمانك بوهم القوة، ومن صالح الحياة دائما أن يكثر فيها من تترقرق عيونهم بالدمع تعاطفا مع الآخرين أو عطفا على الأبناء والأعزاء أو حزنا على ما يستحق الحزن عليه. ومن سوء المصير أن يقل عدد هؤلاء الرحماء في الحياة، ويكثر عدد أصحاب العيون المتحجرة والقلوب القاسية والأكباد الغليظة، فإذا كنت قد اكتشفت مؤخرا ابنك الطيب بعد كل هذه السنين من التباعد والجفاء، فلأنك قد أصبحت والحمد لله من أصحاب العيون الدامعة التي كنت تنكرها علينا من قبل.

والدرس الذي يمكن استخلاصه من هذه النقطة بالذات هو أنه من المؤسف حقا أن «نجهل» أبناءنا على هذا النحو، فلا نفهم شخصياتهم ولا نعرف لهم قدرهم وسجاياهم الحميدة إلا تأثرا بتجربة مؤلمة تعترض طريقنا.. أو تأثرا بآراء الآخرين الإيجابية فيهم.

إذ لماذا لم نقترب نحن منهم من البداية ونشجعهم على الاقتراب منا؛ لكي نكتشف حقيقة شخصياتهم في وقت مبكر ونقيم مواقفنا على أساسها، ونتفهم رغباتهم ومشاعرهم ومطالبهم، ونعتز بهم ونرضى عن أنفسنا أن قدمنا للحياة مثل هؤلاء الأبناء الصالحين؟

وكيف يكون الغرباء «أعرف» بأبنائنا منا نحن؟!

إن بعض أسباب التباعد الإنساني بين البشر هو أننا قد نبدد في بعض الأحيان أوقاتا ثمينة في الكبرياء وانتظار الخطوة الأولى من الطرف الآخر للاقتراب منا، بدلا من أن نخطو نحن هذه الخطوة تجاهه ونقرب المسافات بيننا وبينه.

وأحسب أن هذا هو ما حدث للأسف بينك وبين ابنك هذا في السنوات الطويلة الماضية.. وأرجو أن نستفيد جميعا من دروس تجربتك هذه؛ خاصة الآباء والأبناء منا في التمييز بين ما يستحق أن نكد ونسعى للوصول إليه وبين ما لا يستحق منا أن نضيع العمر والأوقات الثمينة في مطاردته أو السعي إليه، وشكرا لك على رسالتك المفيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الزهرة المفقودة

أقرأ في بريد الجمعة بعض القصص التي تدعونا للتمسك بالأمل في رحمة الله إلى ما لا نهاية، مهما تشتد الأحزان والآلام.. وكان من آخر ما قرأت من هذا النوع رسالة «اللحظة السحرية»، التي روت فيها سيدة فاضلة قصتها مع اليأس من الزواج والإنجاب في البداية، ثم مع الأمل الذي تحقق لها من حيث لا تدري ولا تحتسب..

فولدت بفضل من الله ثلاثة توائم.. لتنجب «خلفة العمر» دفعة واحدة، حيث سيتعذر عليها الإنجاب بعد ذلك لأسباب صحية.

ولقد دفعتني هذه الرسالة لأن أروي لك قصة سيدة من قريباتي المقربات، تكبرني بعدة سنوات وتحمل شهادة جامعية وتتمتع بجمال أخاذ، وبالرغم من جمالها فلقد تعثرت خطواتها على طريق السعادة طويلا؛ إذ تزوجت وهي في العشرين لبضع سنوات ثم طلقت لعدم الإنجاب، ثم تزوجت من شخص آخر لسنوات أخرى، وطلقت للسبب نفسه.. ونصحها الأطباء بألا تسعى للانجاب مرة أخرى؛ لأن طريقه مسدود أمامها ولا أمل لها فيه.

وانطوت السيدة الشابة على نفسها وراحت تجتر أحزانها وآمالها الحسيرة، فساقت إليها الأقدار مهندسا يكبرها بعشرين عاما كان متزوجا وفشل في زواجه لعدم الإنجاب ولعدم صبر زوجته السابقة عليه، إلى أن يؤتي العلاج ثماره معه، فوجد كل منهما في الآخر ضالته.. وتزوجا وكل منهما مقتنع في أعماقه بألا أمل له في الإنجاب.. لكنه لا بأس من الأخذ بالأسباب، ولو من باب شغل النفس عن أفكارها وهواجسها بزيارات للأطباء وخضوع للفحوص وإجراء للتحاليل.. إلخ.

ولأن تخصص الزوج دقيق.. فقد أتيحت له فرص عديدة للسفر إلى الخارج واصطحب زوجته دائما معه إلى هذه الرحلات، وفي كل رحلة يعرضان نفسيهما على المراكز المتخصصة في علاج العقم ويجريان الفحوص، ويتلقيان العلاج بلا طائل.

ومضت عشر سنوات كاملة على حياتهما معا على هذا النحو. وبعد ذلك لاح لهما ولأول مرة أمل ضعيف في الإنجاب عن طريق الإخصاب الصناعي أو الأنابيب، وكانا في ذلك الوقت يقيمان في دولة أوروبية متقدمة فخاضا التجربة وفشلت.

وخاضاها مرة ثانية وفشلت أيضا.. وكرراها للمرة الثالثة فكتب لها النجاح، وبدأت بشائر الحمل تظهر على السيدة وطار الزوجان فرحا.. وترقبا مولودهما السعيد بلهفة من ينتظره بشوق منذ عشرين عاما.. وخطرت لهما فكرة أن يكون مولد الطفل المرتقب في الرحاب الطاهرة.. فسافرا من الدولة الأوروبية إلى الأراضي المقدسة.. وأديا العمرة.. وأقاما في جوار الحرم الشريف ينتظران موعد الولادة إلى أن جاء ووضعت الأم مولودها، وقرت به أعين الأب والأم.. وقررا أن يرجعا للاستقرار في مصر.. ويكفا عن التجوال والترحال ليوفرا لابنهما الحياة

العائلية الهادئة، ورجعا بالفعل إلى بلدهما، وأقام الرجل مشروعا خاصا له إلى جانب عمله في تخصصه الدقيق.

ومضت الأيام رخية هانئة إلى أن اقترب عيد ميلاد الابن الوحيد الثامن وبدأ الأبوان يستعدان للاحتفال به، وفي عزمهما أن يكون الاحتفال هذا العام أكبر من كل مرة سابقة.

وقبل الموعد المنتظر بيومين خرج الطفل الصغير يلهو بدراجته في الشوارع المحيطة بمسكنه فإذا بسيارة مسرعة تصدم الطفل.. وتقتل الفرحة في حياة أبويه، وتقضي على كل شيء جميل في دنياهما.

وكان الابتلاء شديدا ياسيدي... فاسودت جدران المسكن وانطفأت أنواره وخيم عليه الظلام والكآبة.

وتجمعنا نحن الأهل والأصحاب نواسي الزوجين ولا يجرؤ أحدنا على الحديث عن «العوض» أو «الإبدال» المذكور في القرآن.. إذ من أين يأتي العوض أو الإبدال، وقد كان إنجاب هذا الطفل الفقيد ثمرة جهود استمرت عشرين سنة.. وكان مولده معجزة لا تتكرر.. لهذا فقد دار حديث المواساة كله حول الأبرار الصغار، وكيف يشفعون لآبائهم وأمهاتهم عند رب العرش العظيم.. وكيف يراغم الطفل البريء الملائكة عند باب الجنة، لا يريد أن يدخلها إلا وفي يده أبوه وأمه.. إلخ.

ثم أنسحب الجميع وتركوا الزوجين الحزينين لأحزانهما وآلامهما.. وبدأت الزوجة تشكو من الأمراض والآلام الجسدية.. واستشارت طبيبها فأخضعها لفحوص عديدة، ثم أعلنها بأنها حامل!

وصرخت السيدة باكية، وظنت أن طبيبها يحاول تخفيف مأساتها عنها بأن يعلقها بأمل مستحيل في الإنجاب، لكي ترتفع معنوياتها وتتخفف من أحزانها وصارحته بذلك، وقالت له إنه من المستحيل أن تحمل مرة أخرى، لأن حملها الأول كان معجزة، وتم عن طريق الأنابيب

بعد عذاب طويل.. فأجابها الطبيب بهدوء إنه لا دخل له بما حدث في الماضي.. ولا يسمح لنفسه بأن يعلق مريضا بأمل موهوم، حتى ولو كان ذلك بدافع التخفيف عنه، وإنما هو أمام فحوص علمية ونتائج موثوق بها تؤكد له ما يقول، وفي البداية وفي النهاية فإن إرادة الله لا يستعصي عليها شيء.

وانصرفت الزوجة ذاهلة.. وظلت على ذهولها بضعة أسابيع إلى أن اكتمل الحمل وظهرت عليها أعراضه، وبعد شهور أخرى جاء المولود إلى الحياة مصداقا لقوله تعالى {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف:81]، وكان من عجائب صنع الله أن يكون الفارق الزمني بين رحيل الطفل الأول ومجئ الثاني هو تسعة أشهر و15 يوما على وجه التحديد.

وسرعان ما أضيئت أنوار البيت المظلم من جديد.. وتجمعنا حول الزوجين مرة أخرى فشتان كان الفارق بين تجمعنا لديهما هذه المرة، وتجمعنا السابق في منزلهما قبل 9 أشهر، فقد دار الحديث هذه المرة بلا حرج عن «العوض» و

«الإبدال» ورحمة الله بالمحزونين، وأكد لنا الأبوان عزمهما على مواصلة مشروع دار الأيتام، الذي كانا قد بدأه عقب وفاة ولدهما الأول شكرا وحمدا وعرفانا.. ولكيلا ينسيهما تعويض السماء لهما ما انتوياه، وهما في غمرة الأحزان.. وباركنا عزمهما.. وأيدناهما فيه.. ورجونا لهما السعادة والأمان.. وإني لأكتب لك اسمي هذين الزوجين ورقم هاتفهما إذا أردت التأكد من وقائع هذه القصة الغريبة، كما أكتب لك اسمى ورقم تليفونى لنفس هذا الغرض. ليس فقط لكيلا يساورك الشك فيما رويته لك.. ولكن أيضا لأن هناك فصلا آخر من فصولها قد يصعب عليك تصديقه.

ولهذا فإني أريدك أن تتصل بهذين الزوجين وتتأكد منه.. أما هذا الفصل الأخير فهو أن الله سبحانه وتعالى لم يكتف بتعويضهما وإبدالهما خيرا عمن فقدا.. وإنما أهدى إليهما أيضا طفلا ثانيا.. بعد تسعة أشهر أخرى من ميلاد الطفل، الذي أعاد لهما الأمل في الحياة.. وجاء هذا الطفل الثاني أيضا بلا عمليات جراحية ولا علاج ولا إخصاب، فأصبح في حديقتهما زهرتان جميلتان عوضا لهما عن الزهرة المفقودة.. وسبحان من إذا أراد شيئا قال له كن فيكون.. وأرجو أن تزيد هذه القصة من إيمان قرائك بأن رحمة الله قد تجيء في أي وقت لمن يشاء حين يشاء، ومن ثقتهم بأن إرادة الله لا تقف دونها الحوائل والسدود. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ومن ذا يساوره أي شك في ذلك ياسيدي؟

إن قدرة الله سبحانه وتعالى لم تكن يوما موضع اختبار.. ورحمته التي وسعت كل شيء لا تضيق بمن يظنون في غمرة اليأس والقنوط ألا مخرج لهم مما يكابدون، غير أننا مأمورون بالصبر على ما نكره.. والتعلق بالأمل دوما في رحمة الله أن يحقق لنا ذات يوم ما نرجوه لأنفسنا ولو طال بنا الانتظار.

ولقد لاحظ بعض المفسرين أن الله سبحانه وتعالى لم يأمر رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالاقتداء بأسلافه من الرسل في خلق بذاته إلا في الصبر على ما لاقوا من شدائد وواجهوه من محن، وأنه سبحانه وتعالى قد قرن أمره لرسوله بالصبر في أكثر من موضع بالقرآن بأمره له أن يسبح بحمد ربه، كما في الآية الكريمة: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} [الطور:48] وقيل في تفسير ذلك إن التسبيح هنا يحمل معنيين جليلين، الأول هو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يفعل شيئا عبثا أو أن يصدر عنه ما لا يليق بكماله وكرمه وحكمته.. فإذا ابتلى بعض عباده بما يشق عليهم احتماله في حينه، فلحكمة يعلمها هو وإن خفيت على أفهامهم.

وأما المعنى الآخر فهو أن له سبحانه وتعالى في كل شدة عطاء وفي كل بلية نعمة.. فكأنما نبادر بالتسبيح والحمد في ذروة الشدة عسى أن يعجل الله لنا

بالكشف عن عطائه المحجوب وراء هذا الابتلاء، على غرار ما يقال عن الألطاف الإلهية، التي يقول الواصلون إنها ذلك التدبير الألهي الذي قد يأتينا أحيانا بما نكره ليحقق لنا فيما بعد ما نحب، فيكون اختيار الله لنا حين يجيء أفضل ما اخترناه نحن لأنفسنا.. وأشمل فضلا وكرما.

ولا عجب في ذلك إذ ألم تشهد حياة كثيرين منا مواقف معينة بكينا أمامها وأسفنا على ما فاتنا فيها، وضاقت صدورنا باحتمالها، ثم لم تلبث الأيام أن أثبت لنا أنها لم تكن سوى مقدمة لخير عميم أراده الله لنا.. وقصرت آمالنا حتى عن التطلع إليه؟

أو لم تراودنا في بعض مراحل العمر آمال رغبنا بشدة في أن نحققها لأنفسنا، وشعرنا بالحسرة لعجزنا عن بلوغها، ثم مضت بنا رحلة الحياة فإذا بنا نسلم لأنفسنا بأننا لو كنا قد بلغنا تلك الآمال في حينها، لحالت بيننا وبين ما أرادته لنا السماء، فيما بعد من خير أعم وأبقى؟

لهذا المعنى قال ابن عطاء الله السكندري في حكمته الشهيرة: لا تطالب ربك بتأخر مطلبك.. ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك.

يقصد: لا تحاسب ربك عن تأخر تحقيق مطلبك منه.. وإنما حاسب نفسك أنت عن تأخر أدبك في الطلب منه.. أي تأخرك في الاعتماد عليه فيما تريده لنفسك وتأخر في النهوض إلى الطاعات؛ لكي يحقق لك آمالك وقلة صبرك على ما تريد منه.. وتعجلك له..

فعطاؤه سوف يجئ حين يجئ الأوان..

وأفضل العبادة انتظار الفرج..

وفي هذه القصة التي رويتها لنا جاء عطاء الإنجاب للزوجين اللذين تلهفا عليه طويلا بعد عشرين عاما من السعي المتصل إليه.. وبعد زيجتين فاشلتين للزوجة وأخرى مماثلة للزوج فتأمل إذن حكمة ربك في ألا يطيل عليهما الانتظار هذه المرة، حين فقدا زهرتهما الوحيدة ويئس الجميع من كل أمل في التعويض، فلا تمضي أسابيع على محنتهما حتى يقول لهما ربهما {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج:6،7]، فتحمل الزوجة المذهولة ويرزقهما ربهما بطفل آخر بغير علاج ولا جراحات ولا أنابيب ولا انتظار لسنوات مريرة.. لأنه قد رأى برحمته أن يعجل لهما العزاء والتعويض والإبدال وإذ لا تبلغ بهما أقصى آمالهما من ربهما ودعاؤهما إليه، بعد ذلك، أكثر من أن يحفظ عليهما طفلهما الذي أنعم به عليهما هذا.. يقول لهما ربهما مرة أخرى {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [الحجر:98] لأن عطائي بلا حدود.. وكرمي فوق ما يجنح إليه أقصى الخيال، ويهبهما طفلا ثانيا على غير توقع أو انتظار ولا عجب أيضا في ذلك، وهو القائل جل شأنه هو {وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس:107].

فماذا يدعونا إذن إلى التشكك في وقائع هذه القصة ياسيدي، وكل ذلك عليه هين سبحانه وتعالى

إنني أصدق كل ما رويت لنا فيها، دون حاجة إلى الاتصال بطرفيها وأشكرك على إطلاعنا عليها ورغبتك الكريمة في أن يستفيد بها الآخرون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجانب الآخر

عرفته منذ كان عمري خمسة عشر عاما، وهو في التاسعة عشرة من عمره. ونشأ بيننا حب عميق وتمسك كل منا بالآخر، ورفضت من أجله كل من تقدموا لي، إلى أن أصبح قادرا على الزواج وتقدم إلي وجمعنا عش الزوجية وسعدنا بحياتنا معا وأنجبنا بنتا وولدين، ومضت بنا رحلة العمر كما تمضي بغيرنا من الناس.. وواجهنا ما يواجههم من مشكلات الحياة.. واجتزناها معا.. وكان الحب رائدنا في كل الظروف، حتى في الخلافات العابرة التي لا تخلو منها حياة أي زوجين.

وكبر الأبناء وتزوجت الابنة، وكنت دائما الزوجة المحبة لزوجها والمخلصة لبيتها والقائمة بكل أعمال البيت على خير ما يرام بالرغم من أنني موظفة كما كنت ومازلت أنفق كل دخلي على أسرتي ولم أشعر ذات يوم بتقصير من جانبى تجاه زوجي، سواء من الناحية العاطفية أو العائلية.

ثم منذ خمس سنوات وجدته يتغير من ناحيتي فجأة ويبتعد عني، وإذا جلست إلى جواره حرص على أن يلتفت إلى الجانب الآخر لكيلا يرى وجهي.. كأنه يفعل شيئا لا يستطيع معه أن ينظر إلي أو يثبت عينيه في عيني، كما بدأ يهملني ويعاملني بجفاء ويتهرب مني، ويدعني أنام وحيدة وينام هو في فراش آخر، وإذا اضطرته الظروف للمبيت في فراشي لوجود ضيوف عندنا مثلا، سهر حتى أستغرق في النوم ثم تسلل للنوم إلى جوارى.. وإذا سهرت أنا سارع هو بالنوم مبكرا وتركني وحيدة.

وساورتني الشكوك تجاهه وتساءلت عما يمكن أن يكون سببا لابتعاده عني، بعد كل هذه السنين من الحب والامتزاج.. وفاتحته في أمر إهماله لي، فكان لا يشفي غليلي بكلمة مفيدة في كل مرة ويسرع بمغادرة البيت. وواجهته بشكوكي في خيانته لي فأقسم بأغلظ الأيمان أنه لا يعرف امرأة سواي.

وأخيرا تكشف السر المكتوم، وجاءتني ابنتي المتزوجة تبكي وتقول لي إن شقيقها قد صارحها بشكه في زواج أبيه من أرملة تصغره 16عاما، وأنه تعرف عليها عن طريق عمله ويساعد أبناءها في دراستهم، وأنه وشقيقه قد تحدثا إليه في هذا الأمر فأكد لهما أنه إنما يساعد هذه السيدة فقط في إنهاء بعض الأوراق المتعلقة بمعاشها.

وصعقت لما سمعته وظللت أستعرض من أعرفهن من السيدات الأرامل والمطلقات؛ لكي اكتشف من منهن خانني زوجي الحبيب معها بعد كل هذه السنين..

وتحريت كل الأماكن التي يذهب إليها زوجي إلى أن توصلت إليها في النهاية، وقابلتها واجهتها بما عرفته فكانت في قمة البرود وهدوء الأعصاب، وأنكرت زواجها العرفي من زوجي.

وازدادت حيرتي معه وبدأت أستعيد كل تصرفاته وخداعه لى و مبرراته الزائفة لكثرة الخروج والتأخر خارج البيت.. وشعرت بالذل والهوان، أن يضعني زوجي في هذا الموقف مع هذه السيدة، وشعرت بالنار تسرى في جسدي كلما فكرت في علاقته بها، وأحسست بأنه رجل كبير لكنه «ناقص»، لم يرع سنه ووضعه الاجتماعي والعائلى كزوج وأب وجد، كما لم يرع أبناءه ويرغب في أن يتعلق بأهداب الشباب الذاهب، فيرتدي ما لا يليق بسنه و مركزه من الملابس، ويتطرف أمام السيدات والبنات اللاتي في عمر أبنائه، وسقط من نظرى وشعرت بالحزن عليه وعلى طفولته المتأخرة التي يعيشها الآن، وأتمنى أن تنتهي علاقتي به لأني لا أستطيع الحياة معه على هذا النحو، ولن أغفر له مهما حييت خيانته الكبرى» لى، وأصبحت أشك في كل تصرفاته حتى ولو كانت بريئة وأفكر جديا في هدم بيتي، الذي بنيته بدمي ومالي وسنوات عمري، ولا أنسى خداعه لى مع سيدة تصغره ب 16 عاما وليس فيها أية جاذبية، ولا هي ذات مركز أو مال.. ولا تفضلني في شيء إن لم أفضلها أنا من كل الوجوه.

فإذا قال أحد مبررا لنفسه الخيانة إن الرجل في مثل هذه السن يحتاج إلى الحب والحنان والرعاية، ويبحث عنها حيث يجدها، فإني أقول له إنني لم أقصر معه في هذه الناحية، بل إنني عاطفية جدا.. كما أن المرأة أيضا في هذه السن نفسها تحتاج إلى ما يحتاج إليه الرجل من الحب والحنان والرعاية، فماذا أفعل بحياتي مع هذا الزوج الخائن الذي أخلصت له طوال رحلة العمر.. ولم أخنه أبدا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا ضاعت الثقة بين الزوجين فسدت الحياة.. وتسممت النفس بالمرارة والشكوك.. وأنت محقة ياسيدتي إلى حد كبير في صدمتك في حبيب العمر، الذي ارتبطت به وأنت في الخامسة عشرة من عمرك، ومحقة كذلك في رد فعلك الغاضب عند اكتشافك لخديعته لك وزواجه العرفي من أخرى، وكلاكما في سن الاحترام و والهدوء وتطلع النفس لجني ثمار رحلة الكفاح والعطاء.

ولا شك في أن انتهاء معزوفة الحياة بنغمة حزينة لما يؤلم النفس حقا ويثير الأشجان، لكن ماذا نفعل ياسيدتي في بعض أحوال أزمة منتصف العمر.. ورغبة البعض في إقناع أنفسهم بأنهم مازالوا قادرين على الحب والمغامرة العاطفية؟

وماذا تفعل الأم حين تكتشف تردي ابنها فيما لا تحبه له ولا ترضاه؟

هل تقطع ما بينها وبينه وتدعه لنفسه وأقداره فيغوص أكثر وأكثرفي الرمال المتحركة، أم هي تغضب منه وتتألم له.. لكنها أبدا لا تفقد الأمل في استعادته ذات يوم إلى الطريق القويم، ولا تكف عن السعي إلى ذلك بكل الحيل والوسائل حتى ولو منيت جهودها المتكررة بالفشل المرة بعد المرة.

إن كل إنسان به قدر ما من النرجسية، والإعجاب بالذات، والاعتقاد الموهوم بأحقيته دون غيره من البشر في أن ينال من الحياة أطيب الثمار في كل المراحل!

والفضلاء من البشر وحدهم هم الذين يتحكمون في هذا الميل الغريزي لديهم، ويردونه إلى جحوره بالتواضع وتذكر حقوق الآخرين عليهم ومراعاة الأوضاع الاجتماعية والعائلية، والترفع عن الدنايا والترخص والاستجابة للإغراءات، احتراما للنفس والغير والقيم الإنسانية، لكنه في مواجهة بعض من يعجزون عن ذلك أو يتعرضون للضعف البشري العابر في بعض مراحل العمر.. فإن خبراء الشؤون الأسرية في الغرب الفردية أكثر الذي تسود فيه القيم من أي مكان آخر بالعالم.. لم يجدوا ما ينصحون به زوجة في مثل ظروفك، سوى أن تتعامل مع نزوة زوجها المدمرة «بحكمة الأم»، وبفهمها لحقائق الحياة والضعف البشري، وبأملها المستميت دائما في انصلاح الأحوال.. واستعادة الابن الشارد إلى جادة الحق وأنت يا سيدتي فيما أستشعره من رسالتك غاضبة إلى حد الحنق من زوجك ولك كل الحق في ذلك، لكنك غير راغبة في قطع ما بينك وبينه أو الانسحاب النهائي من حياته.. ومادام الأمر كذلك فليس أمامك من سبيل سوى السعي الدؤوب لاستعادة الطائر الشارد إلى عشه المهجور، وإقناعه بكل ما تملكين من حكمة وخبرة وفهم أنثوي بأنه لا يحتاج إلى اختباره جاذبيته كرجل في أية جبهة خارجية.. مع ما يستتبع ذلك من تخبط وتعرض للمتاعب والاضطراب في حياته الشخصية، لأنه بالفعل الفارس المشهود له، ولا يحتاج إلى شهادة خارجية أخرى.

وفي كل الأحوال فإنه إذا كان هناك من ينبغي له أن ينسحب مهزوما مدحورا في مثل هذه المواجهة، فهو الطرف الخارجي الذي غزا حصنك الآمن ولست أنت، إذ إنه ليس من الاحترام لسنوات العمر الطويلة التي استغرقتها قصتك مع زوجك أن يكون استسلامك سريعا أو متخاذلا على هذا النحو.

إن علماء الزيولوجيا يقولون لنا: إن الحمامة بالرغم من كل ما يشاع عن وداعتها، لا ترجع عن غريمتها التي تقتحم عليها عشها حتى تقضي عليها أو تنجح الغازية في الفرار ناجية بحياتها.

ولست أطالبك بالقضاء على غريمتك وإنما بمنافستها في ميدانها واجتذاب زوجك إليك وانتزاعه منها، وسد كل المنافذ عليها فلا تقدر على تهديد عشك أو اقتحامه وترجع خاسرة مدحورة.

فأما الشكوك والهواجس والمرارات بعد ذلك فإن رصيد العمر «وحكمة الآم» في التعامل مع شريك الحياة كفيلان مع مرور الأيام بتهدئة الخواطر وإعادة بناء الثقة، أو على الأقل الحد الأدنى منها من جديد بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأرض الخصيبة!

أريد أن أعرض عليك تجربتي في الحياة ولا أقول مشكلتي.. لأن المشكلة الإنسانية تنعدم وتزول في إحدى حالتين، الأولى عند إيجاد حل لها.. والثانية عند التعايش السلمي أو السلبي معها؛ أي عند الرضا بها ومحاولة ترويض النفس على أنه لا مشكلة هناك في الوضع المشكو منه. والحل الأخير يلجأ إليه نوعان من البشر: الأول هو من لا حيلة له في المشكلة سوى التعايش معها راضيا أو راغما، والنوع الثاني وهم قلة هؤلاء الذين يتقبلون مشاكلهم بنفس صافية عن حق، وهم ذوو النفوس المطمئنة.

و تجربتي هذه لا أبحث لها عن حل لديك بقدر ما أريد منك أن تشاركني برأي فيها. فأنا شاب في الثامنة والثلاثين من عمري تخرجت في كلية مرموقة، وتفرض عليّ طبيعة عملي ألا أقيم في مكان واحد لفترة طويلة، وأن أنتقل كل عدة سنوات بين مدينة وأخرى، ولهذا فإني أقيم إقامة دائمة في القاهرة، وأغيب عنها في فترة وجودي في مقر عملي.

وقد تزوجت منذ 11 عاما من فتاة من أسرة بسيطة وطيبة كأسرتي، وسعدت بها واعتبرت زواجي منها فوزا كبيرا نظرا لما تتمتع به من حسن الخلق والخلقة وبادلتني هي الإحساس نفسه، وعشنا سنوات جميلة.

وكنت خلال غيابي عنها في مقر عملى أعد الأيام على رجوعي إلى زوجتي وبيتي، وأرجع إليها فتغمرني بشوقها وحبها وحنانها.. واستمر الحال على هذا النحو، ونحن قانعان بما أتيح لنا من رزق وبإمكاناتنا البسيطة، ولم يعكر صفو حياتنا سوى تأخر حمل زوجتي. ولكني لم أتعجل الأمور في البداية، وأعطينا أنفسنا فرصة أطول.

ثم بدأنا بعد مرور سنتين على الزواج نستشير الأطباء، وخضعت أنا وزوجتي للفحوص والتحاليل المعتادة في مثل هذه الحالة، فكانت النتيجة تأتي دائما إيجابية بالنسبة لي وسلبية بالنسبة لزوجتي، حيث اتضح وجود مشاكل طبية معقدة لديها. وبدأ مسلسل الاستنزاف المادي لدى كل طبيب، نسمع عنه خيرا أو يوصي به الأهل والأصدقاء، وبدأ معه مسلسل آخر للاستنزاف العاطفي والمعنوي في علاقتي بزوجتي.

لكني والحمد الله صبرت وتجلدت واحتسبت كل الوقت والجهد والمال المبذول عند ربي، ورجوت أن يكون الحرمان من الإنجاب لحكمة إلهية خافية عنا أو دليلا على صلاح الزوجين وإيمانهما، كما جاء في سورة الكهف حين قتل العبد الصالح سيدنا الخضر عليه السلام الغلام، فقال له سيدنا موسى عليه السلام:{أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا}[الكهف:74] فكان تفسير العبد الصالح لما فعل بأمر ربه {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف:81،80].

وكم من الآباء والأمهات يحزنون لفراق الأبناء وكم من الأزواج والزوجات أشد حزنا لعدم الإنجاب.. ولحكمة يعلمها هو وحده سبحانه يهب الذكور لمن يشاء ويهب الإناث لمن يشاء ويجعل من يشاء عقيما.

فاتفقنا أنا وزوجتي على التسليم بقضاء الله وقدره، وعدم تكرار محاولة الإنجاب أو معاودة زيارة الأطباء مرة أخرى.. على أن نترك أمرنا لمن خلقنا يفعل به مايريد.

وواجهت خلال ذلك بالطبع التساؤلات الحائرة: ما هي الباقيات الصالحات التي هي خير من المال والبنون، الذين قال عنهم الحق سبحانه وتعالى إنهم زينة الحياة الدنيا.. وهل حرصنا على الفوز بها يجعلنا نستغني عن الأبناء؟.. وهل إذا تزوجت مرة أخرى بغرض الإنجاب أكون قد ظلمت زوجتي؛ خاصة أنني أشعر بأنني لن أستطيع مقاومة نداء الأبوة بداخلي إلى ما لا نهاية، ولست أتصور نفسي وحيدا في شيخوختي.

وعلى الجانب الآخر كل لسان حال أمي واخوتي يقول لي بغير كلام: تزوج، وإن كانوا لم يتدخلوا في حياتنا الخاصة أبدا، وكانوا لي ولزوجتي نعم الأهل والناصحين.

غير أنني وبعد سبع سنوات من الزواج ومع يأسي المتكرر من

حمل زوجتي، بدأ يعتريني إحساس لم أبح به لأحد من قبل، وهو إحساس الفلاح أو المزارع الذي يبذر البذور في الأرض ويرويها ويرعاها أملا في إنباتها.. ثم لا تنبت الأرض شيئا مما بذره فيها فيعاود البذر مرة ومرات، لكن الأرض بور لا تنبت زرعا فيكره الأرض ويكره البذر، ووجدت نفسي بغير وعي أمتنع عن الفلاحة وأتجنب الأرض، ومكثت على هذا الحال ثلاثة أشهر متتالية بغير أية رغبة في معاودة الفلاحة وبذر البذور، إلى أن شعرت بأن زوجتي تتأذى من ذلك دون أن تتكلم، فحاولت من جديد مصالحة الأرض الطيبة وإعادة فلاحتها وريها دون انتظار للزرع، فإذا بي لا أجد في نفسي القدرة على ذلك، وإذا بالفأس ترفض أن تطأ الأرض!

وكررت المحاولة مرارا وتكرارا دون نتيجة، فتبدل الحال وأصبحت أنا الذي أتلمس لنفسي العلاج خفية، بعد أن كنت أبحث عنه لزوجتي عرضت نفسي على الأطباء المتخصصين فلم يجدوا سببا عضويا لذلك، وأكدوا لي أنني سليم مائة بالمائة، وعرضت نفسي على طبيب نفسي وفشل علاجه معي أيضا.

وانزعجت لذلك بشدة واضطربت حياتي الزوجية فترة ليست قصيرة، وفقدت ثقتي في نفسي كرجل وأحسست بأنني أخسر كل شيء.. ثم تمالكت نفسي بعد ذلك، وبمبدأ التعايش السلمي مع المشكلة، حاولت احتواء الظروف الجديدة وفهمها، وبمبدأ أن الإنسان طبيب نفسه فسرت ماحدث لى بأنه المردود النفسي المعاكس لحالة عدم الإنجاب، أو لحالة اليأس من أن تصبح الأرض البور أرضا خصيبة ذات

يوم، وآمنت بأنه لو شاء الله وحملت زوجتي لعدت لسابق عهدي معها وأفضل ولا عقاقير.

ومع مرور الوقت على هذا التعايش السلمي مع المشكلة، استعدت بعض الثقة المفقودة بالنفس في تعاملي مع زوجتي وتحسنت حالتي بعض الشيء دون أن أرجع إلى كامل طبيعتي السابقة. لكن الشيء الذي آلمني كثيرا واستنكرته بشدة وأنا أواجه هذه المحنة أن زوجتي لم تتحملني، ولم تصبر عليّ خلال رحلة علاجي لدى الأطباء أو فترة علاجي لنفسي بنفسي، وباحت لأمها بمشكلتي مما أثر فيّ كثيرا وأحرجني أكثر وهز من كبريائي وكرامتي، وأنا الذي كنت ومازلت الحافظ الأمين لسر مرضها وسر عدم إنجابها عن الجميع.

وهنا تزداد صعوبة الأمر وتعقيده، وهو أن الزواج مرة أخرى بالنسبة لي ستكون نتيجته أحد أمرين: إما أن تحل عقدتي المستحدثة أو مشكلة ضعفي مع الزوجة الجديدة باعتبارها مسألة نفسية بحتة إلى جانب أن أرزق بأبناء، وإما أن يستمر هذا الضعف مع الزوجة الجديدة ويهدد بفشل الزواج منذ بدايته فما هو الصواب في رأيك.. إنني أرجو أن تشاركني التفكير وإعادة ترتيب أفكاري والإجابة على أسئلتي.. وشكرا لك مقدما.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

اقتربت إلى حد كبير من فهم أسباب ما طرأ عليك من تغيير عارض بإذن الله في علاقتك بزوجتك. فلقد أجريت ما يسميه علماء النفس بعملية الاستبصار الذاتي للمشكلة.. وفيها يكون الإنسان هو الطبيب النفسي لنفسه.. فيطيل التفكير في المشكلة التي تواجهه.. ويحاول تحليل أسبابها وفهم أبعادها.. ثم يبدأ مواجهتها بحلول ذاتية نابعة من الفهم الصحيح لها، وهكذا فلقد فسرت زهدك المفاجئ في زوجتك بعد سبع سنوات من الزواج بتأثير الإحباط، الذي شعرت به وتمكن منك لعجز أرض زوجتك عن إنبات ما بذرته فيها من بذور.

لكنك وقد فهمت أهم أسباب المشكلة، لم تحاول علاجها للأسف بحل نابع من هذا الفهم الصحيح لأسبابها وشغلت عنه بالبحث عن علاج عضوي أو نفسي لدى الأطباء، ولو أنك أمعنت التفكير في أسباب المشكلة لعرفت أن زهد الزارع في معاودة بذر بذوره في الأرض غير الخصيبة إنما يرجع أساسا إلى فهمه «لوظيفة» هذه الأرض.. وهي أن تتلقى البذور وتحتويها في باطنها ثم تنبتها نباتا صالحا بالخدمة والرعاية. في حين أن زوجتك ليست مجرد «مشتل لإنبات البذور».. وإنما هي كائن بشري مكتمل الجوانب الحسية والنفسية والعاطفية، ولا يجوز التعامل معه كمجرد «رحم» لابد أن تؤدي وظيفتها الأساسية.. فإن عاقتها عن تأديتها بعض العواقب زهدنا فيها وأنكرناها!

ولقد كان الحل الصحيح لمشكلتك الطارئة هو ألا تتعامل مع علاقتك بزوجتك على أنها مجرد «حصة فلاحة»، إن تكرر فشلها انصرفنا عنها ونتجاهل جانب

التواصل العاطفي في هذه العلاقة... وتحرم نفسك من متعتها المشروعة والمرغوبة لذاتها وليس فقط لمحاولة استنبات أرضها نباتا حسنا.

ولو أنك كنت قد أقنعت نفسك بذلك في الوقت المناسب وكففت عن الربط «الوظيفي» بين العلاقة الزوجية والأمل المحموم في الإنجاب، وسلمت بقضاء الله وقدره وتركت أمركما لخالقكما يدبره كيف يشاء كما قلت في رسالتك، لما أصابتك خيبة الأمل في كل مرة تبتلع فيها الأرض البذور ولاتنبتها.. ولما سيطر عليك شعور الإحباط والضيق بهذه الأرض ففقدت حماسك لها وإقبالك عليها وتفسيري لذلك هو أنك لم تتقبل عن رضا حقيقي في أعماقك الحرمان من الإنجاب ولم تسلم فيه بقضاء ربك، وإنما ظل الصراع قائما في أعماقك بين الرغبة في الأبوة والعجز عنها.. فكان ما سميته أنت في رسالتك «بالمردود النفسي المعاكس لعدم الإنجاب».

وأحد أهم أسباب الشقاء الإنساني هو تطلع النفس لما لا تناله أبدا ولا تسلم باليأس منه حتى النهاية.

والزهد الحقيقي - كما يقول لنا القطب الصوفي الإمام الجنيد - هو خلو القلب مما خلت منه اليد. وأنت ياصديقي لم يخل قلبك مما تتطلع إليه بالرغم من قبولك الظاهري به.. ومن هنا كان الصراع النفسي بين ما تهفو إليه نفسك وما تحرمك الظروف منه.. وكان الأثر السلبي لهذا الصراع على علاقتك بزوجتك وعلى بعض قدراتك.

ولست ألومك على تطلعك المحروم للإنجاب؛ لأنه أمل مشروع لك ولكل إنسان أو إنسانة، لا مراء في ذلك، لكني أشرح لك فقط أسباب الإحباط الذي تشعر به حين لا تنبت الأرض نباتها.. وأقول لك أيضا إن ما تشكو منه الآن من ضعف نسبي، إنما هو من أثر هذا الإحباط والسخط الكامن في النفس على أقدارها في الحياة.

ولعلك لو كنت قد اخترت استمرار الحياة مع زوجتك عن قبول صادق بأقدارك معها، لما ترك الإحباط هذا الأثر السلبي على علاقتك بها.. ولربما فاجأتك الأقدار دون انتظار بهدية من هدايا السماء للصابرين المحتسبين ذات يوم ليس ببعيد.

وإذا كان عدم الإنجاب قد ترك عليك هذا الأثر السلبي.. فإن انعكاسات التجارب الإنسانية على الأشخاص قد تختلف من إنسان إلى آخر.. ولرب أشخاص آخرين ينعكس عليهم أثر مثل هذه التجربة على نحو مختلف، فيزدادون إقبالا على زوجاتهم وارتباطا واهتماما بالعلاقة العاطفية معهن، لأن الحب وحده يكون هو المبرر الوحيد لاستمرار مثل هذه الحياة الزوجية إلى جانب حسن المعاشرة.. والرغبة الصادقة من كل طرف في أن يحيا إلى جوار الطرف الآخر، دون ضغوط أو دوافع قهرية كدوافع الحرص على استقرار الأبناء.

ولأنك كما تقول لا تطلب حلا لمشكلتك من أحد، وإنما ترغب فقط في مشاركتك بالرأي فيها، ومساعدتك على إعادة ترتيب أفكارك.. فلعلي أقول لك إن تفكيرك في الزواج مرة أخرى قد يحقق بالفعل إحدى النتيجتين اللتين أشرت إليهما، لكن

إقدامك عليه يرتبط أساسا باختيارك لحياتك، وهل تفضل الاستقرار مع زوجتك الحالية مع الحرمان من الإنجاب، حتى ولو كنت قد عتبت عليها تسرعها في البوح بسرك لأمها.. أم تفضل السعي إلى تحقيق الأمل المحروم وخوض المجهول ومواجهة تبعاته، وقد تكون كأي تجربة إنسانية محبطة أو مبشرة.

وفي كل الأحوال فإن هذا الاختيار يرتبط أساسا بموقف زوجتك منه، وهل تقبل بزواجك من أخرى مع استمرار حياتها معك أم تفضل - وهو الأغلب الأعم - أن تسرحها بإحسان وتبحث أنت عن سعادتك بعيدا عنها.. فواجه نفسك بما تريد.. وبما تظن أنك قادر على تحمل تبعاته بشجاعة، ولئن رضيت بما اختاره الله لك، فلقد أعفيت نفسك من أن تضعها موضع الاختبار مع من لا يربطها بك من روابط الحب والعشرة والوفاء، بعض ما يحملها على القبول بأي نقص فيك.

وشكرا لك في النهاية على رسالتك هذه التي أطلعتنا على جانب خفى من جوانب التجربة الإنسانية، اعترف لك أنني اطلع عليه بالرغم من خبرة السنين لأول مرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البقرة الحلوب

أنا شاب أعمل حاليا في دولة عربية، وقد تزوجت من فتاة طيبة وعلى خلق، وتم الاتفاق بيني وبين أسرتها قبل الزواج على مسؤولية كل طرف في الزواج من أثاث وغيره، ثم حصلت على فرصة عمل بالخارج قبل الزواج وسافرت إلى مقر عملي، وبعد عامين من الغربة رغبت في إتمام الزفاف، ففوجئت بأسرة خطيبتي ترفض الوفاء بالتزاماتها معي في الأثاث، وتتخلى عن كل ما اتفقنا عليه، بحجة أنني أعمل في الخارج ولم أعد في حاجة لمساهمة الأسرة في الزواج.

وكدت أفسخ الخطبة حينذاك، لكن رغبتي في فتاتي دفعتني لاستكمال المشوار، فأعددت العدة للزواج وتحملت كل التكاليف وقمت بإعداد بيت الزوجية تدريجيا دون أن تتحمل أسرة فتاتي مليما واحدا في زواج ابنتها، وتزوجنا وسافرت زوجتي معي إلى مقرعملي، ورأت على الطبيعة قسوة الغربة ومشقة العمل، حتى قالت لي إنها لم تكن تتخيل أن ما أكسبه من دخل يجني بكل هذه المشقة والعناء.

وعشنا حياتنا في سلام إلى أن أردت أن أدعو أبي وأمي لأداء العمرة، وهما اللذان لم يطلبا مني شيئا منذ زواجي، فرفضا ذلك في البداية لكيلا يكلفاني من أمري رهقا، خاصة وأنني كنت قد خرجت لتوي من أعباء الزواج، وبعد عامين من الإلحاح عليهما قبلا دعوتي وجاءا لأداء العمرة والزيارة.

ومنذ أن علمت أسرة زوجتي بذلك اشتعلت الحرب بين زوجتي وأهلها.. ومع كل مكالمة معهم تأتي زوجتي باكية وهي تكتم أسباب حزنها، حتى خشيت عليها في بعض الأوقات من أن أتركها وحدها مع الأطفال.. وقررت أن نعود إلى بلدنا في إجازة.

وليس المجال هنا مناسبا لأشكو لك مما تفعله أسرة زوجتي، خلال فترة الإجازة القصيرة التي نقضيها كل سنة في مصر، وهي شهر واحد فقط.. حيث لا بد من أن تأتي الأسرة بأكملها من المحافظة التي تقيم فيها لتقيم معنا أسبوعا على الأقل من هذا الشهر تتقيد خلاله حريتي.. وحركتي، ولا أجد الفرصة للخروج مع زوجتي والأطفال وحدنا، وبعد انتهاء الفترة وعودة الأسرة سالمة إلى بيتها تترك وراءها أحد أفرادها ليلازمنا بقية الإجازة، دون مراعاة لخصوصيتنا وحاجتنا للانفراد بأنفسنا!

المهم هو أن زوجتي نتيجة للضغط عليها من أهلها، بدأت تطالبني بإرسال مبالغ من المال من حين لآخر لأسرتها، بدعوى أن ظروفها صعبة ومصاريفها كثيرة، وأنها لابد أن تكون بارة بأهلها.. مع العلم بأن كل أفراد الأسرة يعملون في وظائف محترمة، وليس لديهم سوى ابن واحد في مرحلة التعليم، ينفقون على دروسه الخصوصية أكثر مما تسمح به ظروفهم. فأرفض أحيانا وأقبل أحيانا، وإذا رفضت لعدم اقتناعي بحاجة الأسرة إلى المساعدة من جانبي تحزن زوجتي وتتألم ويتغير حالها.

وقد فشلت في إقناعها بأنها ليست مسؤولة ماديا عن أسرتها؛ لأنها لا تعمل ولا تملك إيرادا خاصا يتيح لها مساعدتها.. وحاولت مرارا إقناعها بأننا أحق بما نرسله من حين لآخر لأسرتها، لأننا لم نكمل بعد تأثيث مسكننا في مصر، ولدينا أطفال يحتاجون إلى نفقات كثيرة.. وأهلها على الناحية الأخرى يجددون أثاث منزلهم وأجهزتهم من حين لآخر.. ويعيدون طلاء بيتهم وعندهم من الأثاث ماليس عندنا، وبالرغم من كل ذلك تصر زوجتي على موقفها.

ياسيدي إنني لا أرفض مساعدة أسرة زوجتي إذا كانت تستحق المساعدة.. وقد حدث أن مرض والدها وطلبت مني زوجتي مبلغا لإرساله لأهلها كمساعدة في العلاج، فأعطيت لها أكثر مما طلبت.

ثم عادت وطلبت ذلك مرة ثانية وثالثة، فدفعت على مضض، وقلت لها إنني مستعد لأن أدفع لهم ما يريدون، ولكن بشرط اعتباره دينا يرد إليّ عند الميسرة، فرفضت زوجتي هذا المبدأ رفضا قاطعا بدعوى أنه لابد أن تشارك أسرتها في همومها!

وزوجتي طيبة جدا إلى الحد الذي يدفعها لأن تعطي ما معها من نقود لأهلها، حتى ولو كانت تحتاج إلى أن تشتري به لنفسها ملابس ضرورية، وأهلها لا يرفضون ما تقدمه لهم.. وأنا سعيد مع زوجتي، لكن هذه المشكلة تنغص عليّ حياتي معها، وتشعرني بالتوتر والقلق على مستقبل أطفالي وعلى زوجتي.

وسؤالي اليك هو: هل يعنى بر زوجتى بأهلها أن تكرهني نفسيا ومعنويا على إرسال نقود لأهلها؟ لقد مررت بظروف صعبة للغاية في الغربة، ومرت بها أسر زميلة لنا، رأيناها تمد أيديها هنا وهناك.. تقترض لكي تدبر أمورها.. ونحن والحمد لله لم نمد أيدينا لأحد لمواجهة هذه الظروف.. أفلا يدفع ذلك زوجتي إلى أن تفكر في مستقبلنا ومستقبل أطفالنا في مثل هذه الظروف الصعبة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

الحق أنني لا ألوم زوجتك على استجابتها لضغط أسرتها عليها لإرسال المساعدات المالية لها، بقدر ما ألوم هذه الأسرة نفسها على إلحاحها عليها بذلك بلا حياء ولا تعفف، وهي التي تعلم جيدا أن ما ترسله إليهم ابنتهم ليس من ناتج عملها، وإنما من كد رجل «غريب» عنها، وأنه ليس لها حق في ماله ولو كان موسرا، وليس فرضا عليه أن يساعدها ولو كانت بها خصاصة، إذا لم ينهض هو إلى ذلك من تلقاء نفسه وبدافع من شهامته وبره بذوي زوجته.

فالرجل مسؤول عن إعالة زوجته وأبنائه وحدهم.. وليس عن إعالة أسرة الزوجة أو عن إكمال متطلبات حياتها، وما يعطيه لمثل هذه الأسرة عن طريق زوجته ليس سوى عطاء اختياري، ينبغي أن يخرج من يده إليهم دون إكراه أو ضغط نفسي عليه بزوجته أو بتغير تعاملها معه، ولعلي لا أتجاوز الحدود حين أقول: إن ما يدفعه الزوج في مثل هذه الحالة عن غير رضا منه في أعماقه، وتتقبله الأسرة

وهي على يقين من أنه قد دفعه مضطرا أو كارها أو تجنبا للنزاع مع زوجته، إنما يدخل في دائرة الحرام، الذي أشار إليه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، حين قال ما معناه: «ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام».

بمعنى أن ما يدفعه المرء استحياء من الرفض، ويعلم متلقيه علم اليقين أنه لولا حياء المعطي من الطالب لما أعطاه ما طلبه.. إنما يدخل في دائرة الحرام؛ لأن طالبه قد استغل حياء المعطي منه.. وأكرهه معنويا على تقديم هذا العطاء له.

فكيف يكون الحال إذن، وهذه الأسرة تعلم علم اليقين بما تعانيه من حرج معك لكي تستجيب لمطالبها منك؟

وأين الحياء وأين التعفف عن إحراج مثل هذه الزوجة الشابة مع زوجها بمطالبها منها، والأسرة تعرف بالطبع أنها لا تعمل ولا تتكسب، وأن ما تعطيه لها هو من كد زوجها وعرقه في الغربة؟

إن المشكلة هي أن هناك قلة من الأسر، تتعامل مع بناتها المتزوجات من مغتربين على أنهن مصادر إضافية للدخل بالنسبة إليها.. وتتوهم أن كل من يعمل بالخارج إنما يغرف من نبع لا يغيض ماؤه، ولهذا فلا بأس بأن تنعم ببعض قطرات من فيضان هذا النبع، مع أن الجميع يعرفون جيدا أن العمل في الغربة لم يعد موردا خصبا للرزق الموفور كما كان منذ ثلاثين عاما أو أكثر.. وأن ظروفه تتجه من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للمغتربين في كثير من الأحيان، ناهيك عما يدفعه هؤلاء المغتربون من ضريبة قاسية من غربتهم وعنائهم، مقابل ما يحصلون عليه بكدهم وعرقهم، فكيف تترخص أسرة زوجتك في التطلع لجني بعض ثمار عملك وغربتك على هذا النحو المهين؟

وأين إعزازها لابنتها وتكريمها لها وإعلاؤها لقدرها في عيني زوجها من هذا السلوك الرخيص؟

إن كل إنسان أحق بما جنت يداه، وزوجتك بالرغم من عاطفتها الطيبة تجاه أسرتها وبرها بها مما يحمد لها من ناحية المبدأ، ليست مسؤولة لا ماديا ولا معنويا عن تلبية مطالب أسرتها المادية، أو عن إعانتها على أمرها بمال زوجها، إذا لم يرغب هو في ذلك أو لم يقتنع بأحقية هذه الأسرة بمساعدته لها، فإذا كانت أسرتها تستحق المساعدة بالفعل فإنك تستطيع أن تعطيها من زكاة مالك ما يعينها على أمرها عملا بالقاعدة الشرعية المعروفة «الأقربون أولى بالمعروف» أما إذا لم يكونوا من مستحقي الزكاة والمساعدة فلا شيء عليك إن أنت قبضت عنها يدك.

ولاشيء على زوجتك كذلك إن هي رفضت هذا الضغط المعنوي الكريه عليها من جانب أسرتها، لكي تستنزف زوجها في مطالب مادية غير ضرورية ولا أساسية. بل إن من واجبها بالفعل أن تستنكر مثل هذا السلوك الشائن من جانب أسرتها، وأن ترجو أهلها أن يترفقوا بها ويعفوها من مثل هذا الحرج السخيف مع زوجها، إن كانوا حقا يهتمون بأمرها ويحرصون على سعادتها واستقرار حياتها الزوجية.

فإذا كانت البقرة الحلوب تحتاج إلى حلب ألبانها بانتظام، وإلا تسممت بما يحويه ضرعها وهلكت.. فإن إنهاك هذه البقرة كذلك بالحلب المستمر بلا حساب قد يؤدي إلى الإضرار بها.. وجفاف ضرعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللحظة السحرية

كنت قد نويت أن أكتب لك منذ زمن بعيد، لكن ظروفي حالت دون ذلك والآن فإني أشعر بأنه قد آن الأوان لكي أطلعك أنت وقراء هذا الباب على تجربتي مع الحياة. فأنا سيدة في الثامنة والثلاثين من العمر نشأت في أسرة ميسورة الحال، عشت في كنفها حياة هادئة إلى أن تخرجت في الجامعة.. وعقب التخرج التحقت بعمل ممتاز يدر عليّ دخلا كبيرا.. وأحببت عملي كثيرا وأعطيته كل اهتمامي، وتقدمت فيه سريعا حتى تخطيت كثيرين من زملائي.

وكنت خلال مرحلة الجامعة قد ارتديت الحجاب بإرادتي واختياري، وبدأ الخطاب يتقدمون إليّ، لكنني لم أجد في أحدهم ما يدفعني للارتباط به، ثم جرفني العمل والانشغال به عن كل شيء آخر حتى بلغت سن الرابعة والثلاثين، وبدأت أعاني النظرات المتسائلة عن سبب عدم زواجي حتى هذه السن. وتقدم لي شاب من معارفنا يكبرني بعامين.. وكان قد أقام عقب تخرجه عدة مشروعات صغيرة باءت كلها بالفشل.. ولم يحقق أي نجاح مادي، وكان بالنسبة لي محدود الدخل، لكني تجاوزت عن هذه النقطة ورضيت به وقررت أنني بدخلي الخاص، سوف أعوض كل ما يعجز هو بإمكاناته المحدودة عنه.. وستكون لنا حياة ميسورة بإذن الله.

وقد ساعدني على اتخاذ هذا القرار أنني كنت قد بدأت أحبه. وأنه قد أيقظ مارد الحب النائم في أعماقي، والذي شغلت عنه طيلة السنوات الماضية بطموحي في العمل، كما أنه كان من هؤلاء البشر الذين يجيدون حلو الكلام، وقد روى بكلامه العذب ظمأ حياتي.

وبدأنا نعد لعقد القران وطلب مني خطيبي صورة من بطاقتي الشخصية ليستعين بها في ترتيب القران.. ولم أفهم في ذلك الوقت مدى حاجته لهذه الصورة لكني أعطيتها له.

وفي اليوم التالي فوجئت بوالدته تتصل بي تليفونيا، وتطلب مني بلهجة مقتضبة مقابلتها على الفور.. وتوجست خيفة من لهجتها المتجهمة، وأسرعت إلى مقابلتها؛ فإذا بها تخرج لي صورة بطاقتي الشخصية وتسألني هل تاريخ ميلادي المدون بها صحيح؟ وأجبتها بالإيجاب وأنا أزداد توجسا وقلقا، ففوجئت بها تقول لي: إذن فإن عمرك يقترب الآن من الأربعين.

وابتلعت ريقي بصعوبة ثم قلت لها بصوت خفيض إن عمري 34 عاما.

فقالت إن الأمر لا يختلف كثيرا لأن الفتاة بعد سن الثلاثين تقل خصوبتها كثيرا، وهي تريد أن ترى أحفادا لها من ابنها.. لا أن تراه يطوف بزوجته على الأطباء جريا وراء الأمل المستحيل في الإنجاب منها.

ولم أجد ما أقوله لها لكني شعرت بغصة شديدة في حلقي وانتهت المقابلة وعدت إلى بيتي مكتئبة.. ومنذ تلك اللحظة لم تهدأ والدة خطيبي، حتى تم فسخ الخطبة بيني وبينه، وأصابني ذلك بصدمة شديدة؛ لأنني كنت قد أحببت خطيبي وتعلقت

بأمل السعادة معه.. لكنه لم ينقطع عني بالرغم من فسخ الخطبة، وراح يعدني بأنه سيبذل كل جهده لإقناع والدته بالموافقة على زواجنا.. واستمر يتصل بي لمدة عام كامل دون أي جديد.. ووجدت أنني في حاجة إلى وقفة النفس ومراجعة الموقف كله.. وانتهيت من ذلك إلى قرار ألا أمتهن نفسي أكثر من ذلك، وأن أقطع هذه العلاقة نهائيا.. وفعلت ذلك ورفضت الرد على اتصالات خطيبى السابق.

ومرت ستة أشهر عصيبة من حياتي.. ثم أتيحت لي فرصة السفر لأداء العمرة، فسافرت لكي أغسل أحزاني في بيت الله الحرام.. وأديت مناسك العمرة.. ولذت بالبيت العتيق وبكيت طويلا، ودعوت الله أن يهيئ لي من أمري رشدا، وفي أحد الأيام كنت أصلي في الحرم وانتهيت من صلاتي وجلست أتأمل الحياة في سكون، فوجدت سيدة إلى جواري تقرأ في مصحفها بصوت جميل.. وسمعتها تردد الآية الكريمة {وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء:113] فوجدت دموعي تسيل رغما عني بغزارة، والتفتت إليّ هذه السيدة وجذبتني إليها، وراحت تربت على ظهري بحنان، وهي تقرأ لي سورة الضحى إلى أن بلغت الآية الكريمة {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ} [الضحى: 5] فخيل إليّ أنني أسمعها لأول مرة في حياتي، مع أني قد رددتها مرارا من قبل في صلاتي.. وهدأت نفسي.

وسألتني السيدة الطيبة عن سبب بكائي فرويت لها كل شيء بلا حرج فقالت إن الله قد يجعل بين كل يسرين عسرا، وإنني الآن في العسر الذي سوف يليه يسر بإذن الله.. وإن ما حدث لي كان فضلا من الله لأن في كل بلية نعمة خفية كما يقول العارفون، وشكرتها بشدة على كلماتها الطيبة ودعوت لها بالستر في الدنيا وفي الآخرة.

وغادرت الحرم عائدة إلى فندقي وأنا أحسن حالا، وانتهت فترة العمرة وجاء موعد الرحيل، وركبت الطائرة عائدة إلى القاهرة فجاءت جلستي إلى جوار شاب هادىء الملامح وسمح الوجه، وتبادلنا كلمات التعارف التقليدية. فوجدتني أستريح إليه واتصل الحديث بيننا طوال الرحلة إلى أن وصلنا إلى القاهرة، وانصرف كل منا إلى حال سبيله، وأنهيت إجراءاتي في المطار، وخرجت فوجدت زوج أقرب صديقاتي إليّ في صالة الانتظار، فهنأني بسلامة العودة وسألته عما جاء به للمطار، فأجابني بأنه في انتظار صديق عائد على نفس الطائرة التي جئت بها. ولم تمض لحظات إلا وجاء هذا الصديق، فإذا به هونفسه جاري في مقاعد الطائرة وتبادلنا التحية، ثم غادرت المكان بصحبة والدي.

وما أن وصلت إلى البيت وبدلت ملابسي واسترحت بعض الوقت حتى وجدت زوج صديقتي يتصل بي، ويقول لي إن صديقه معجب بي بشدة، ويرغب في أن يراني في بيت صديقتي في نفس الليلة لأن خير البر عاجله، ثم يسهب بعد ذلك في مدح صديقه والإشادة بفضائله، ويقول لي عنه إنه رجل أعمال شاب من أسرة معروفة وعلى خلق ودين، ولا يتمنى لي من هو أفضل منه يرشحه للارتباط بي.

وخفق قلبي لهذه المفاجأة غير المتوقعة.. واستشرت أبي فيما قاله زوج صديقتي فشجعني على زيارة صديقتي لعل الله جاعل لي فرجا.

وزرت صديقتي، وزوجها والتقيت بجاري في الطائرة، واستكملنا التعارف وتبادلنا الإعجاب.. ولم تمض أيام أخرى حتى كان قد تقدم لي.. ولم يمض شهر ونصف الشهر بعد هذا اللقاء حتى كنا قد تزوجنا، وقلبي يخفق بالأمل في السعادة، وحديث السيدة الفاضلة في الحرم عن اليسر بعد العسر يتردد في أعماقي وبدأت حياتي الزوجية متفائلة وسعيدة ووجدت في زوجي كل ما تمنيته لنفسي في الرجل الذي أسكن إليه من حب وحنان وكرم وبر بأهله وأهلي، غير أن الشهور مضت ولم تظهر على أية علامات للحمل، وشعرت بالقلق خاصة أنني كنت قد تجاوزت السادسة والثلاثين، وطلبت من زوجي أن أجري بعض التحاليل والفحوص خوفا من ألا أستطيع الإنجاب، فضمني إلى صدره وقال لي بحنان غامر إنه لا يهمه من الدنيا سواي.. وإنه ليس مهتما بالإنجاب، لأنه لا يتحمل صخب الأطفال وعناءهم، لكني أصررت على مطلبي.

وذهبنا إلى طبيب كبير لأمراض النساء، وطلب مني إجراء بعض التحاليل، وجاء موعد تسلم نتيجة أول تحليل منها فوجئت به يقول وإنه لا داعى لإجراء بقيتها؛ لأنه مبروك يا مدام.. أنت حامل!.

فلا تسل عن فرحتي وفرحة زوجي بهذا النبأ السعيد.. وغادرت عيادة الطبيب، وأنا أشد على يده شاكرة له بحرارة.

وفي ذلك الوقت كان زوجي يستعد للسفر لأداء فريضة الحج، فطلبت منه أن يصطحبني معه لأداء الفريضة وأداء واجب الشكر لمن أنعم عليّ بهذه النعم الجليلة، ورفض زوجى ذلك بشدة وكذلك طبيبي المعالج لأنني في شهور الحمل الأولى.. لكنى أصررت على مطلبي، وقلت لهما إن من خلق هذا الجنين في أحشائي على غير توقع قادر على أن يحفظه من كل سوء، واستجاب زوجي لرغبتي بعد استشارة الطبيب، واتخاذ بعض الاحتياطات الضرورية وسافرنا وعدت وأنا أفضل مما كنت قبل السفر.

ومضت بقية شهور الحمل في سلام وإن كنت قد عانيت معاناة زائدة بسبب كبر سني، وحرصت خلال الحمل على ألا أعرف نوع الجنين لأن كل ما يأتيني به ربي خير وفضل منه، وكلما شكوت لطبيبي من إحساسي بكبر حجم بطني عن المعتاد، فسره لي بأنه يرجع إلى تأخري في الحمل إلى سن السادسة والثلاثين. ثم جاءت اللحظة السحرية المنتظرة وتمت الولادة، وبعد أن أفقت دخل علي الطبيب وسألني باسما عن نوع المولود الذي تمنيته لنفسي فأجبته بأنني تمنيت من الله مولودا فقط ولا يهمنى نوعه.. ففوجئت به يقول لي: إذن مارأيك في أن يكون لديك الحسن والحسين وفاطمة!

ولم أفهم شيئا وسألته عما يقصده بذلك، فإذا به يقول لي وهو يطالبني بالهدوء والتحكم في أعصابي إن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليّ بثلاثة توائم، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أراد لي أن أنجب خلفة العمر كلها دفعة واحدة رحمة منه بي لكبر سني، وأنه كان يعلم منذ فترة بأنني حامل في توئم، لكنه لم يشأ أن يبلغني بذلك لكيلا تتوتر أعصابي خلال شهور الحمل ويزداد خوفي. ولم أسمع بقية كلامه

فلقد انفجرت في حالة هستيرية من الضحك والبكاء وترديد عبارات الحمد والشكر لله.. وتذكرت سيدة الحرم الشريف.. والآية الكريمة {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ} [الضحى:5].

وهتفت إن الحمد لله... الذي أرضاني وأسبغ عليّ من نعمته أكثر مما حلمت به أما زوجي الذي كان يزعم لى أنه لا يتحمل صخب الأطفال وعناءهم؛ لكي يهون على همي بأمري فلقد كاد يفقد رشده حين رأى أطفاله الثلاثة، وراح يهذي بكلمات الحمد والشكر لذي الجلال والإكرام حتى خشيت عليه من الانفعال. وأصبح من هذه اللحظة لا يطيق أن يغيب نظره عنهم.

وإنني أكتب إليك رسالتي هذه من أحد الشواطىء، حيث نقضي إجازة سعيدة أنا وزوجي وأطفالي، ولكي أرجوك أن توجه رسالتي هذه إلى كل فتاة، تأخر بها سن الزواج أو سيدة تأخر عنها الإنجاب وتطالبهن بألا يقنطن من رحمة الله.. وألا يقطعن الرجاء في الخالق العظيم، وألا يملللن سؤاله والدعاء إليه أن يحقق لهن آمالهن في الحياة، فلقد كنت أردد دائما دعائي المفضل: ربي إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك، فرحمتك أهل لأن تبلغني لأنها قد وسعت كل شيء.

وأخيرا فإني أسألك وقراءك صالح الدعاء لي ولزوجي الحنون ولأطفالي، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

سئل الإمام الشافعي رضي الله عنه ذات يوم: أيهما أفضل للمؤمن: أن يبتلى أم أن يمكّن أي »أن يحقق له الله كل ما يرجوه لنفسه«.

فقال: وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء؟

ثم أشار في إجابته عن السؤال إلى قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وما تعرض له من ابتلاء تلو ابتلاء حتى جاءه الفوز العظيم {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ}، وأشار إلى قول يوسف في الآية الكريمة بعد أن منَّ له ربه {إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ} [يوسف:90].

فالتقوى والصبر إذن هما مفتاحا نيل الرجاء وتحقيق الأمنيات والتمكين في الدنيا ونحن جميعا نطلب السعادة لأنفسنا في الحياة.. ونكاد في بعض الأحيان نردد ما قالته الممثلة الفرنسية جولييت في خطابها الشهير إلى من أحبته بإخلاص ثلاثين عاما أو تزيد، وهو الأديب الفرنسي فيكتور هوجو: لو كان للإنسان أن يشتري سعادته بحياته لأنفقت عمري منذ زمن بعيد! ولكن من منا يلزم نفسه في سعيه إلى سعادته وتحقيق أحلامه في الحياة، بالتقوى والصبر إلى أن تهبط عليه جوائز السماء للصابرين المتقين؟

ولا شك في أنك قد صبرت على الإيلام والإيذاء المعنوي، اللذين تعرضت لهما في تجربتك السابقة وقرنت الصبر بالتقوى والالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية، فما

أسرع ما جاءتك جوائز السماء تترى.. ليس فقط بتحقيق أمنياتك في الزواج والسعادة والإنجاب، وإنما أيضا بما هو أكثر من كل ما رجوت لنفسك، وأبعد من كل ما تطاول إليه خيالك ذات يوم.

فكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفحم من تشككت من قبل في قدرتك على الإنجاب، وكرهت لابنها أن يتعلق بالأمل الضعيف في إنجاب طفل واحد منك، فيقول لها ولأمثالها: إنني أنا الله أقول للشيء كن فيكون، وأرزق من أشاء حين أشاء بغير حساب {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ} [يوسف 56].

فإذا كانت سيدة الحرم المكي الشريف قد حدثتك وهي تسري عنك عن فضل الله، الذي قد يتمثل من حيث لا ندري في البلية، فلقد كانت تشير في حديثها إليك إلى الألطاف الخفية، التي يقول عنها العارفون إنها قد تصاحب الابتلاء، حين تجيء إلينا أقدارنا ببعض ما نكره تمهيدا لأن تحمل إلينا فيما بعد كل ما نحب ونرجو.

ولقد جاءك برهان ربك على أن ما بكيت له من فشل تجربتك السابقة في الارتباط، لم يكن كله ابتلاء.. وإنما كان تمهيدا لأن يحقق لك ربك فوق كل ما كنت ترجين لنفسك من سعادة ورجاء، إذ من يستطيع أن يجزم أنك لو كنت قد تزوجت خطيبك السابق كنت ستسعدين به، كما تسعدين الآن بحياتك مع زوجك المحب البار بأهله وأهلك، والذي تظاهر بعدم رغبته في الإنجاب لكيلا يجرح مشاعرك أو يثير شكوكك في مستقبل حياتك معه.

بل ومن يستطيع أن يجزم أنك لو كنت قد تزوجته كنت ستنجبين منه هؤلاء التوائم الثلاثة، الذين أهداهم لك ربك تعويضا لك عن سنوات الصبر والانتظار؟

إننا نعرف جيدا أن لخصوبة الرجل الأثر الأكبر في تحديد نوع الجنين، وعدد الأجنة التي تحملها المرأة، فكيف كانت ستتحقق إذن تلك الألطاف الخفية، وتهديك السماء هذه الزهرات الثلاث دفعة واحدة، لو كنت قد نلت ما أسفت على ضياعه منك في حينه.

أليس هذا دليلا جديدا على صدق مقولة الإمام الحسن بن على رضي الله عنهما: من رضي بحسن اختيار الله له، لم يعدل بما اختاره الله له شيئا!

لقد اختار لك الله سبحانه وتعالى ياسيدتي، فكان اختياره لك أفضل وأكرم مما اخترت أنت لنفسك من قبل.. وحق عليك الشكر آناء الليل وأطراف النهار، فالشكر حافظ النعم كما يقولون، ولا شك في أنك من الشاكرين المبتهلين إلى ربهم أن يجعلهم أهلا لما أنعم الله به عليهم ويحفظ عليهم نعمته.. فهنيئا لك سعادتك وجوائز السماء التي تضيء حياتك، وشكرا لك على رسالتك الجميلة.

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

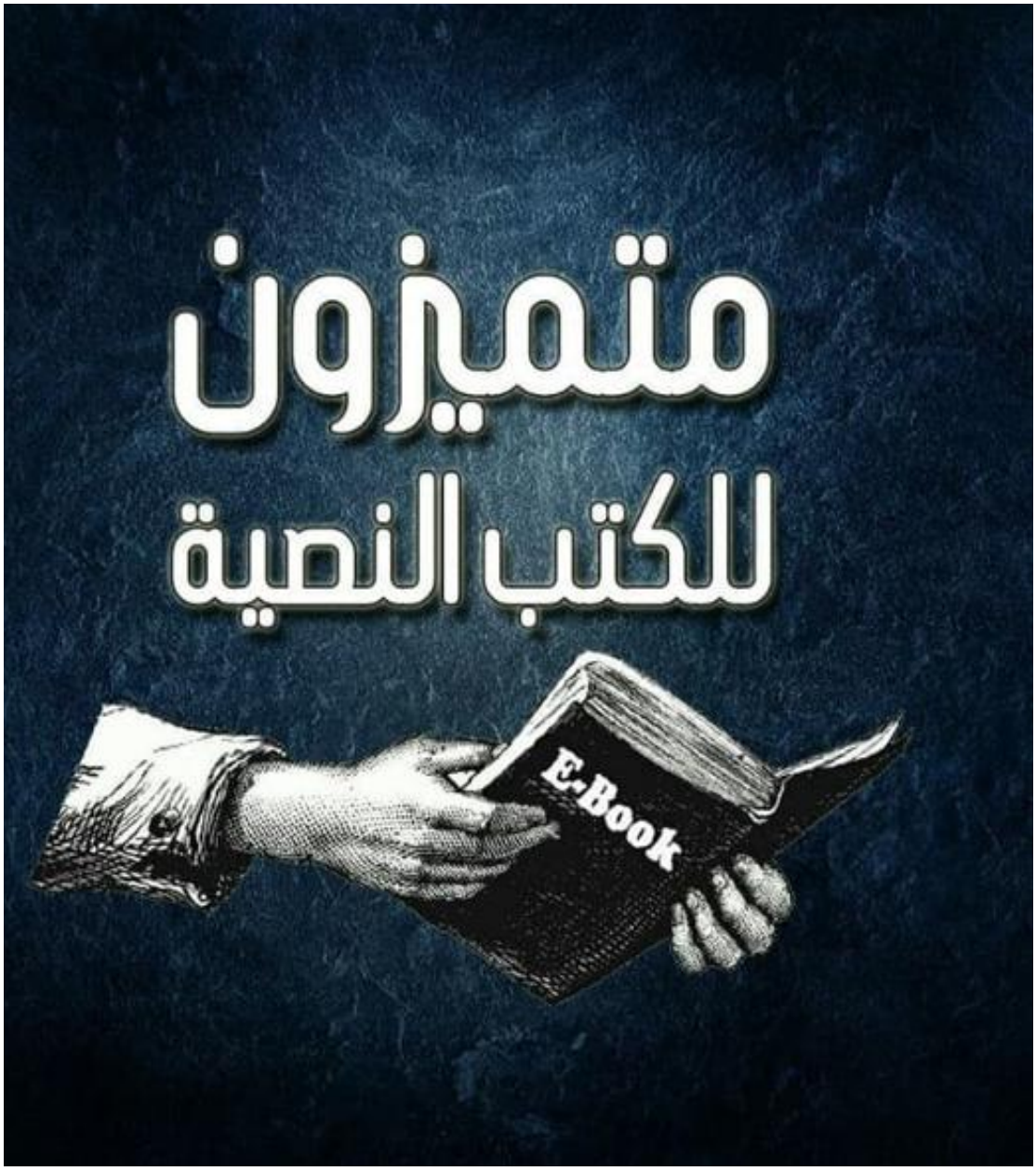
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

مقدمة..

السفينة التائهة!

الأسباب الجارحة

الذكريات الأليمة

الليل الطويل!

النظرة الصحيحة

الأوسمة

السند المنهار!

الداء العضال

لقاء الغرباء!

الوجه الحزين!

رسالة إلى أب

المقدمات الخاطئة

الصورة الحقيقية

شجاعة الحياة

التاج الأبيض

النظرات المحرومة!

خلاصة التجربة

اختبار القوة!

الزهرة المفقودة

الجانب الآخر

الأرض الخصيبة!

البقرة الحلوب

اللحظة السحرية

الفهرس: